محمد

رسول الله ﷺ منهج ورسالة

بحث وتحقيق

الشيخ / محمد الصادق عرجون

الجزء ٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م

قصة حاطب بن أبي بلتعة وكتابه إلى قريش

قال ابن إسحاق - كما حكاه عن ابن كثير - لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبى بلتعة كتابًا إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم، ثم أعطاه امرأة - وجعل لها جعلا على أن تبلغه إلى قريش، فأخفته وخرجت به، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام والمقداد بن عمرو.

وفي رواية للبخاري عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- من طريق أبي عبد الرحمن السلمي، قال علي: بعثني وأبا مرثد الغنوي والزبير، وكلنا فارس، وفي رواية أخرى للشيخين عن علي: بعثني ﷺ أنا والزبير والمقداد، وزاد البيضاوي عمارًا وطلحة.

ويظهر أن هذا ليس اختلافًا في المبعوثين وعددهم وأسمائهم، ولكنه بيان بأن المبعوثين كانوا جماعة، فذكر بعض الرواة بعضهم، وذكر آخرون بعضًا آخر منهم، وكون المبعوثين جماعة أوفق للمقام والحال، لأنه من باب الحذر والاحتياط لما عسى أن يكون في الطريق ممن يعرف خبر الكتاب والمرأة، فيقاتلون دون أن تصل بالكتاب إلى مكة، ويحتمل أن من زاد على الزبير والمقداد كانوا كمينًا للحذر.

وذكر ابن حجر في التوفيق بين الروايات رأيا آخر، وقف به عند رواية الشيخين أو رواية البخاري وحده، فقال: ويحتمل أن الثلاثة كانوا مع علي رضي الله عنه، فذكر أحد الراويين عنه ما لم يذكره الآخر.

قصة كتاب حاطب واستحضاره والاختلاف في نصه

ثم قال رسول الله ﷺ لمبعوثيه: «انطلقوا حتى تأتوا روضة (خاخ) فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين، فخذوه منها»(١).

قال علي رضي الله عنه: فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة - وهي مكان على بعد بريد من المدينة - فإذا نحن بالظعينة، فقلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب فأنخناها، فالتمسنا فلم نر كتابًا، فقلنا: ما كذب رسول الله ﷺ، فقلنا لها: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فلما رأت الجد قالت أعرض، فأعرض فأخرجته من عقاصها - أي لفائف شعرها - فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة وسمى منهم سهيلًا، وصفوان، وعكرمة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، وما أجمع عليه من الأمر في السير إليهم.

وقد ذكر أهل المغازي نص كتاب حاطب إلى المشركين، وهو - كما ذكره السهيلي في روضه-: أما بعد، يا معشر قريش، فإن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش كالليل يسير كالسيل، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم، فإنه منجز له ما وعده.

(١) صحيح البخاري.

ثـم قال السـهيلي : وفي تفسـير يحيى بن سـلام أن حاطبًا كتب : إن محمدًا قد نفر ، فإما إليكم وإما إلى غيركم ، فعليكم بالحذر .

وفـي حديث علي رضي الله عنه عند البخاري ، قال : حدثنا قتيبة ، حدثنا سـفيان عن عمرو بن دينار ، أخبرني الحسـن بن محمد : أنه سـمع عبيـد الله بن أبي رافع ، سـمعت عليًا يقول : بعثني رسـول الله ﷺ أنا والزبيـر والمقداد ، فقـال : «انطلقوا حتـى تأتوا روضـة خاخ ، فإن بهـا ظعينة معها كتـاب ، فخذوه منهـا ، فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتـى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة فقلنا : أخرجي الكتاب ، فقالت : ما معي كتاب ، فقلنا : لتخرجـن الكتاب أو لنلقين الثياب ، فأخرجته من عِقَاصِها[٢] ، فأتينا به رسـول الله ﷺ ، فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشـركين يخبرهم ببعض أمر رسـول الله ﷺ ، فقـال ﷺ : «يا حاطب ما هذا ؟» فقال حاطب : يا رسـول الله لا تعجـل علي ، إني كنت امرءًا ملصقًـا في قريش - يقول : كنت حليفًـا ولم أكن من أَنْفُسِـها - وكان من معـك من المهاجرين لهـم قرابات يحْمُـون بها أهليهم وأموالهـم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسـب فيهـم أن أتخذ عندهم يـدًا ، يحمون قرابتي ، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني ، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام .

فقـال رسـول الله ﷺ : «أما إنه قد صدقكـم» فقال عمر : يا

(٢) المعنى من ضفيرة شعرها. (المجلة)

رسـول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ : «أما إنه قد صدقكم»، فقال عمر : يا رسـول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافـق، فقـال ﷺ : «إنه قد شـهد بدرًا، ومـا يدريك لعل الله قد اطلع على من شـهد بدرًا فقال : اعملوا ما شـئتم فقد غفرت لكم» فأنزل الله سورة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾

إلى قوله : ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ (الممتحنة : ١)

قـال ابن كثيـر : وقد رواه الجماعة إلا ابـن ماجه من حديث سـفيان ابن عيينة، وقال الترمذي : حسن صحيح، وقال الإمام أحمـد : حدثنا حجين ويونس، قالا : حدثنا ليث بن سـعد، عن أبـي الزبيـر، عن جابر بن عبد الله أن حاطب بن أبي بلتعة كتب إلى أهل مكة، يذكر أن رسول الله ﷺ أراد غزوهم، فدل رسول الله على المرأة التي معها الكتاب، فأرسـل إليها، فأخذ كتابها من رأسـها، وقـال : «يا حاطـب أفعلت» قال : نعـم، أما إني لم أفعله غشًـا لرسـول الله ﷺ، ولا نفاقًا، قد علمت أن الله مظهر رسـوله، ومتـم له أمره، غيـر أني كنت غريبًا بيـن ظهرانيهم، وكانـت والدتـي معهم، فـأردت أن أتخذ يدًا عندهـم، فقال له عمـر : ألا أضرب رأس هـذا؟ فقال ﷺ : «أتقتـل رجلًا من أهل بـدر! وما يدريك لعل الله قد اطلع إلـى أهل بدر، فقال : اعملوا ما شئتم».

قـال ابن كثيـر : تفرد بهـذا الحديث من هـذا الوجه الإمام

أحمد، وإسناده على شرط مسلم.

وموقف عمر رضي الله عنه في حادث حاطب بن أبي بلتعة، وكتابه إلى قريش، وذكره لهم في كتابه ما أجمع عليه رسول الله ﷺ من المسير إليهم بجيش كثيف وتأهبه لحربهم بما لا طاقة لهم به - مشكل عسير الدفع - إذا صحت الرواية به - إذ كيف يقول عمر رضي الله عنه عقب سماع النبي ﷺ إقرار حاطب بذنبه، واعترافه به، واعتذاره عنه بين يدي النبي ﷺ على مشهد ومرأى ومسمع من الصحابة رضي الله عنهم، وتصديق النبي ﷺ له فيما قال في اعتذاره ووصيته ﷺ الصحابة به وأن لا يقولوا له إلا خيرًا-: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق.

ورسول الله ﷺ لم يأل في التحقيق مع حاطب، فقد سأله ﷺ عن صنيعه فلم ينكره، ولكن بيّن لرسول الله ﷺ ما حمله على ذلك، وأنه لم يفعله نفاقًا ولا كفرًا، وأقسم أنه ما ارتاب في الله منذ أسلم، وأنه لم يفعل ما فعل ارتدادًا عن دينه ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال ﷺ - وهو المؤيد بالوحي من عند الله - لأصحابه: «أما إنه قد صدقكم، ولا تقولوا له إلا خيرًا»، وهذا قول حاسم في إثبات صحة إيمان حاطب وإسلامه وعدم نفاقه.

ثم تذكر رواية الحديث أن النبي ﷺ رد على عمر قوله مرة ثانية بقوله ﷺ: «أتقتل رجلًا من أهل بدر، وما يدريك لعل الله

اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ؟ » ، وهنا فقط تدمع عين عمر ويقول : الله ورسوله أعلم ، فكيف يترك النبي ﷺ قوله الحاسم في قبول قول حاطب واعتذاره عما بدر منه ، وقوله لأصحابه : « أما إنه قد صدقكم » وهو قاطع لا يحتمل التأويل في إثبات صحة إيمان حاطب وإسلامه ، ويعدل ﷺ عن هذا القول الصريح إلى ذكر ميزة لأهل بدر تفضَّل الله بها عليهم رفعًا لشأنهم ، وهي غفران ذنوبهم ، وهذا لا يعدو أن يكون خصيصة لأهل بدر ، وحاطب كان أحدهم ، بل كان من مقدميهم بمواقفه ، فلم يذكرها ﷺ احتجاجًا لإثبات صحة إيمان حاطب وإسلامه ، لأن الاحتجاج لذلك حسم بقول النبي ﷺ لأصحابه : « أما إنه قد صدقكم ولا تقولوا له إلا خيرًا » ، وهذا هو موقف سفح الدمع ، ورد العلم لله ورسوله ، فهلا دمعت عين عمر رضي الله عنه ، ورد العلم لله ورسوله آنئذ ؟

وقد حاول ابن حجر أن يدفع الإشكال المشكل بتأويل موقف عمر وكلامه بما لا يدخل في صميم الموضوع فقال : وإنما قال عمر : « دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق » الذي أوردته الرواية بحرف (الفاء) التعقيبية عقب قول رسول الله ﷺ في قبول اعتذار حاطب عن صنيعه الذي صنعه ، وتصديقًا له فيما قال في اعتذاره مخاطبًا أصحابه بتبرئة حاطب عما يغمز إيمانه ، بل يدخله في مضايق النفاق ، إذ قال لهم : « أما إنه قد صدقكم ، ولا تقولوا له إلا خيرًا » - لما كان عند

عمـر من القوة في الدين وبغـض المنافقين، فظن أن من خالف ما أمر به النبي ﷺ من إخفاء مسـيره عن قريش، وحرصه على عـدم وصول خبره إليهـم، وبعثه جماعة علـى الطريق حتى لا يبلغهـم الخبـر، وظهور هذا بيـن الصحابة ممـا لا يخفى على حاطب رضي الله عنهم أجمعين.

فلـذا ظـن عمر أنه اسـتحق القتـل، لكنه لم يجـزم بذلك، فلذلـك اسـتأذن في قتلـه، فلو جزم لمـا اسـتأذن وأطلق عليه منافقاً لكونه أبطن خلاف ما أظهر.

وهذا كلام ضعيف جدًا، لا يدفع الإشـكال، لأن عمر رضي الله عنه كغيره من أعلياء الصحابة وكبرائهم يجب أن يكون بين يدي رسـول الله ﷺ سـامعًا مطيعًا بعد أن يسمع من النبي ﷺ القول القاطع في تصديق حاطب وقبول اعتذاره، إذ ليس له من الأمر شـيء بعد أمر رسول الله ﷺ لأنه ليس لأحد قول مع قول رسـول الله ﷺ، والمؤمنـون جميعهم منهيون عـن التقدم بين يدي رسـول الله ﷺ بالقـول والفعل، كما هـو صريح قول الله تبارك وتعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجرات: ١)

قال ابن المنير في انتصافه: ابتدأ السـورة بإيجاب أن يكون الأمر الذي ينتهي إلى الله ورسـوله متقدماً على الأمور كلها من غير تقييد ولا تخصيص.

أمـا قوة الدين عند عمر، وبغضه المنافقين فلا مدخل له في موضـوع الإشـكال، لأن وجود النبي ﷺ يأبـى أن يكون لأحد قـط قول مع قوله مهما كانت قوة دينـه، وأما بغضه للمنافقين فهـذا شـأن جميع المؤمنيـن إذا وقفوا على نفـاق منافق، وهو لا يجيـز قتلهـم بنفاقهم، ولـم يثبت أن النبـي ﷺ قتل منافقًا لنفاقـه، وكان ﷺ أشـد بغضًـا للمنافقيـن من عمـر وغيره، ولكن الله لم يأذن له ﷺ في قتلهم مع فظاعة فجورهم وبشـاعة جرائمهم، فلا وجه لإدخال قوة دين عمر وبغضه للمنافقين في دفع الإشكال.

وعندنا أن هذا الموقف من عمر رضي الله عنه - إذا استقامت الروايـة على أسـلوبها فـي تعقيب قول عمر رضـي الله عنه: يا رسـول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافـق، لقول النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» بحرف الفاء المفيدة للترتيب والتعقيب، ممـا يـدل على أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسـول الله، دعني أضـرب عنـق هـذا المنافق كما هـو صريح روايـة البخاري في بـاب غزوة الفتح، وما بعـث حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم بغـزو النبي ﷺ من حديث علي، قال في حكاية دفاع حاطب عن نفسـه، ولـم أفعله ارتدادًا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسـلام، فقال رسـول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» فقال عمر يا رسـول الله: دعنـي أضرب عنق هـذا المنافق، فتعقيب

عمر على قول الرسـول ﷺ : «أما إنه قد صدقكم» بهذا القول فيــه ما فيه، لأنه قد يحمله من لم يكن مطمئن الإِيمان على أنه رد لقول رسول الله ﷺ .

فموقـف عمر علـى ظاهر الروايـة في أسـلوبها الذي جعل قـول عمر تعقيبًا على قول رسـول الله ﷺ عســر التأويل جدًا، والطريقــة التــي حاولها ابــن حجر في الإِجابة عــن قول عمر لا تدخل في صميم الموضوع.

ولو أن ابن حجر قال: إن هذا الموقف يمثل طرفًا من موقف عمــر في الحديبية، لكان في قوله اعتــذار عن عمر وموقفه، لا دفعَ لإِشــكاله وإجابــةً عنه، لأن عمر رضي الله عنه اشــتد عليه أمر هدنة الحديبية وشــروط معاهدتها وتحير في الأمر، بل قد اعترف بعظم خطئه بعد أن انكشف الغطاء عنه ببركة النبي ﷺ وبركــة الصديق أبي بكر رضــي الله عنه، وقال: لقد دخلني أمر عظيم، وراجعت النبي ﷺ مراجعة ما راجعته مثلها قط.

وروى عنــه البــزار أنه قال: اتهِمُوا الــرأي على الدين، فلقد رأيتنــي أرد أمر رســول الله ﷺ وما أَلَوْتُ عــن الحق(٣)، فرضي رســول الله ﷺ وأبيــت، حتــى قــال: «يــا عمر ترانــي رضيت وتأبى؟»

وفــي حديث ابن عبــاس عند الواحدي أن عمــر قال يومئذ:

(٣) المعنى: ما قصرت عن الحق. (المجلة)

لقد أعتقت بسبب ذلك رقابًا، وصمت دهرًا، حتى قال: ما شككت منذ أسلمت إلا هذه الساعة.

وهذا الشك - إذا صحت الرواية - ليس شكًا في أصل العقيدة الإيمانية، ولكنه ظن أن رسول الله ﷺ صنع ما صنع في معاهدة الحديبية باجتهاد منه ﷺ، لا بوحي من الله، والشك في الاجتهاد لا يُسلم إلى الشك في العقيدة الإيمانية، وصاحبه مجتهد مأجور.

وأقصى ما يؤخذ على عمر رضي الله عنه أنه لم يبادر بالقبول والاطمئنان والتسليم، كما بادر أبو بكر الصديق - رضي الله عنهما - والصديق منذ كان الإيمان بالله ورسوله كان أرسخ إيمانًا وأعمق يقينًا، وكان عمر يعرف له ذلك، ولهذا ذهب إليه وهو في قمة حيرته واشتداد الأمر عليه، يسأله بعد أن سأل رسول الله ﷺ، فكان رد الصديق عليه موافقًا لفظًا ومعنى لما أجابه به رسول الله ﷺ، وزاده فقال له: فاستمسك بغرزه فإن الله لا يضيعه[٤]، فدخل اليقين إلى قلب عمر فملأه، ورضي وأناب وحدَّث عن نفسه فقال: ما زلت أتصدق وأصوم، وأصلي، وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي حتى رجوت خيرًا.

ومعلوم أن موقف الحديبية كان أثقل في محنته وأشد في بلائه على جمهور الصحابة رضي الله عنهم من موقف حاطب

(٤) الغَرز للبعير مثل ركاب السرج للدابة. والمعنى اتّبعه ولا تفارقه. (المجلة)

بن أبـي بلتعة وكتابه إلـى قريش، وتوبته واعتـذاره، وتصديق النبي ﷺ له: فإن قوة دين عمر وبغضه المنافقين مما يقبل في عـذره لموقفـه هناك، فإن ذلك هنا بعيد عـن القبول إلا بتأويل متعسف.

ولعمـر رضي الله عنه مواقف في شـدته وقوة دينه لا يسـوغ الاعتـذار بها عنه إلا مع الاعتـراف بأنه رضي الله عنه كغيره من الثوابـت في منابت الإيمـان عرضة للخطأ الذي قـد تدفع إليه هـذه الطبيعة وقوة الدين، وكراهية الحيدة عن جادة الحق، فلا يضـره ذلـك ولا ينقص من قـوة دينه أن يقع منـه خطأ يلاحقه بالندم وصالح العمل.

هـذا يمكن أن يكون اعتذارًا عن موقـف عمر رضي الله عنه إذا ثبـت أن الرواية وقعت أحداثها كما يدل عليه أسـلوبها من تعقيـب قول عمر لقول رسـول الله ﷺ، لكنه اعتـذار لا يدفع الإشـكال كما زعم ابن حجر، ولا يصلح جوابًا عن موقف عمر وقوله: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق.

وقـول ابن حجر: وأطلق ـ أي عمر عليـه ـ أي على حاطب ـ منافقًـا لكونـه أبطن خلاف ما أظهر، لا يخلـو عن ضعف، لأن النفاق الشـرعي وهـو المعروف عنـد الإطلاق بيـن المجتمع المسلم في صدر الإسلام إنما هو إبطان الكفر وإظهار الإسلام، ولم يعرف بالعموم في المبطن والمظهر إلا بعد عهد السـلف،

والمعنى الخاص بالنفاق الشرعي هو الذي أراده عمر، لأنه جعله سببًا لقتله، لظنه ارتداده عن الإسلام، وأما المعنى العام في إبطان خلاف ما أظهر فلا يقتل به، إلا إذا قارنه سبب يوجب القتل، وهذا عرف بعد السلف بالزندقة.

ومما يحتمل في الرواية، ويندفع به الإشكال، ولا يحتاج معه إلى اعتذار عن موقف عمر رضي الله عنه أنه قال مندفعًا بقوة دينه، وبغضه للمنافقين، لأن تصرفه إذا صح هذا الاحتمال يكون تصرفًا إيمانيًا، يوجب عليه أن يقول للرسول ﷺ: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق الذي كشف عن باطنه بسوء فعله.

ذلك أن الاحتمال قائم بأن قول عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: دعني أضرب عنق هذا المنافق لم يكن - كما هو ظاهر في الرواية - تعقيبًا على قول رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» وإنما كان قبل أن يعلم أن رسول الله ﷺ قال هذا القول ليحسم به قصة حاطب في مشهد من أصحابه حتى لا يغمزوه في إيمانه، وليس في الرواية ما يثبت أن عمر رضي الله عنه كان حاضرًا في وقت سؤال النبي ﷺ حاطبًا عن صنيعه، وعن الحامل له على ذلك، وليس فيها ما يثبت أنه سمع دفاع حاطب عن نفسه، وسمع قول النبي ﷺ لأصحابه: «أما إنه قد صدقكم» ويوصيهم بأن لا يقولوا له إلا خيرًا.

ولما حضر عمر رضي الله عنه وسمع ممن كان شاهدًا للقصة ما كان من حاطب، ولم يسمع ما كان من رسول الله قال ما قال لرسول الله ﷺ مندفعًا بقوة دينه وبغضه المنافقين، ولم يقله لتصديق النبي ﷺ حاطبًا فيما أخبره به في اعتذاره، وحاشا عمر رضي الله عنه أن يرد قولًا لرسول الله ﷺ يسمعه منه ثم لا يبالي بإطراح هذا القول، ويستأذن في فعل ينقضه ويرده.

ويبقى بعد ذلك إيراد الروايةِ قولَ عمر رضي الله عنه بصيغة التعقيب على تصديق النبي ﷺ حاطبًا في اعتذاره، وهذا سهل الدفع عند من يعرف أن روايات الحديث وصل إلينا أكثرها مروية بالمعنى، والرواية بالمعنى قد يدخلها كثيرًا تصرف الرواة في التعبير عن المعنى المقصود، وقد قبل العلماء هذا النحو من التصرف في ألفاظ الحديث ما دام لم يخرج عن المقصود.

في القرآن الحكيم القول الفصل في قضية حاطب

والقـول الفصل فـي هذا ما جاء فـي القـرآن الحكيم، ففي حديـث البخاري المروي في المغازي، والتفسـير والجهاد أنه قال بعد قوله: «اعملوا ما شـئتم فقد غفـرت لكم»، فأنزل الله السورة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾

(الممتحنة: ١)

وهـذا نص قاطع في إثبات صحة إيمان حاطب ويقينه، وأنه لم ينافق بما صنع لأن الخطاب في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾

صريـح فـي أن المخاطبين مؤمنـون إيمانًا لم يَشُـبْه نفاق، وحاطب داخل فـي هؤلاء المخاطبين دخـولًا أولويا، إذ كانت قصتـه سـبب نزول الآيات، وإذا كان لا قـول لأحد قط مع قول رسـول الله ﷺ، فمن البداهـة أن لا يكون لأحد من المخلوقين قول مع قول الله تعالى.

وقد كانت هذه الآيات الأولى من هذه السورة دروسًا تربوية للمجتمع المسلم، ومنهجًا عمليًا في حياته، يبقى معهم حيًا ما بقي القرآن الكريم هاديًا لهم، ومرجعًا لأمور حياتهم.

وقد ساق الزمخشري قصة حاطب في أول تفسيره للسورة مساقًا متسقًا موجزًا جامعًا فقال: روي أن مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم يقال لها سارة أتت رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يتجهز للفتح، فقال لها: «أمسلمةً جئت»؟ قالت لا، قال «أفمهاجرة جئت؟» قالت: لا، قال: «فم جاء بك؟» قالت: كنتم الأهل والموالي والعشيرة، وقد ذهبت الموالي - تعني قتلوا يوم بدر - فاحتجت حاجة شديدة، فحث عليها بني عبد المطلب، فكسوها وحملوها وزودوها، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة وأعطاها عشرة دنانير، وكساها بردًا، واستحملها كتابًا إلى أهل مكة نسخته: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة: «اعلموا أن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم» فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر، فبعث رسول الله ﷺ عليًا، وعمارًا، وعمر، وطلحة، والزبير، والمقداد، وأبا مرثد، وكانوا فرسانًا، وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة، فخذوه منها وخلوها، فإن أبت فاضربوا عنقها».

وأدركوها، فجحدت، وحلفت، فهموا بالرجوع فقال علي رضي الله عنه: والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله، وسل سيفه وقال:

أخرجي الكتاب أو تضعي رأسك، فأخرجته من عقاص شعرها.

فاستحضر رسول الله ﷺ حاطبًا وقال له: وما حملك عليه؟» فقال يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكني كنت امرءًا ملصقًا في قريش، وفي رواية، كنت عزيزًا فيهم، أي غريبًا، ولم أكن من أنفسهم، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم ومواليهم غيري، فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله تعالى ينزل عليهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئًا فصدقه رسول الله ﷺ، وقبل عذره فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم» ففاضت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم، فنزلت.

وذكر الزمخشري عمر في الذين أرسلوا إلى الظعينة لأخذ الكتاب لم نره لغيره ، فإذا صح وجوده معهم أمكن حمل قوله: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق أنه قاله بمجرد عودة المبعوثين إلى رسول الله ﷺ وقبل أن يسمع اعتذار حاطب.

بدء مسير رسول الله ﷺ إلى مكة

كان رسول الله ﷺ قد جعل من مسيره إلى مكة في جيش كثيف العدد، مجهز بأقوى عدة من السلاح والرجال والمؤن، وسائر أدوات الحرب، ـ مسير وفاء لحلفائه الخزاعيين، وإرعاب مرهب لقريش، ليتقي بذلك إشعال حرب مدمرة تفنى فيها بقية قريش.

فهو ﷺ لم يكد يعلن الخبر ويتعرفه الناس بعد أن أتم جهازه، وتجهز الناس حتى تجمع حوله من المهاجرين والأنصار المقيمين في المدينة المنورة عشرة آلاف مقاتل بأدواتهم الحربية ومؤنهم ومراكبهم من الخيل والإبل، كما جاء في حديث ابن عباس عند البخاري، ثم أرسل ﷺ إلى من كان من القبائل المسلمة حول المدينة فتلاحق منهم بالجيش ألفان، كان مجموع من سار بهم رسول الله ﷺ إلى مكة اثنا عشر ألفًا من المجاهدين كما رواه الحاكم في الإكليل، والنيسابوري في كتابه شرف المصطفى، وفي مرسل عروة عند ابن إسحق وابن عائذ: ثم خرج ﷺ في اثني عشر ألفًا من المهاجرين والأنصار، وأسلم، ومزينة، وجهينة، وغفار، وسليم.

وكان خروجه ﷺ من المدينة المنورة في رمضان، واختلفت الروايات اختلافًا متباعد الجوانب في تحديد يوم خروجه، ولكن الاتفاق قائم على أن خروجه ﷺ كان وهو صائم، والناس معه صائمون حتى بلغ الكديد، وهو مكان بين

قديد وعسفان، أفطر ﷺ لأنه بلغه أن الناس قد شق عليهم الصيام وقيل له: إن الناس ينظرون فيما فعلت، فلما استوى على راحلته بعد العصر دعا بإناء من ماء، فوضعه على راحته ليراه الناس فشرب فأفطر، ثم ناوله رجلًا إلى جنبه فشرب، كما رواه مسلم والترمذي من حديث جابر رضي الله عنه.

وفي حديث ابن عباس من طريق عكرمة عند البخاري أنه ﷺ دعا بإناء من لبن أو ماء، فوضعه على راحته فأفطر، وأفطروا، ولم يزل ﷺ مفطرًا حتى انسلخ الشهر.

وفي حديث جابر المتقدم من رواية مسلم والترمذي أنه ﷺ لما خرج قيل له بعد ذلك: إن بعض الناس صام فقال ﷺ: (أولئك العصاة).

وروى الشيخان أن النبي ﷺ رأى في سفره زحامًا ورجلًا قد ظُلِّل عليه فقال: «وما هذا»؟ قالوا: صائم، فقال ﷺ: «ليس من البر الصيام في السفر».

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: سافرنا مع رسول الله ﷺ ونحن صيام، فقال: «إنكم دنوتم من عدوكم، والفطر أقوى لكم» فكانت رخصة، فمنا من صام، ومنا من أفطر، ثم نزلنا منزلا آخر، فقال ﷺ: «إنكم مصبِّحون عدوكم، فالفطر أقوى لكم فافطروا» فكانت عزيمة.

ولما أخذ ﷺ في المسير بجيشه وهو على أتم أهبة عقد الألوية والرايات ودفعها إلى قادة القبائل وزعماء أبطال الجهاد، ولم

يزل ﷺ يسير بكتائبه حتى بلغ مرّ الظهران ـ وهو مكان قريب من مكة ـ أمر الناس أن يوقدوا عشرة آلاف نار، ليزيد من إرعاب قريش وإرهابها، وهي حائرة لا تعرف من حركاته ﷺ شيئًا، تعيش مغتمة خائفة، يكاد يوبقها الوجل والفرق خشـية أن يغزوهم والسيف قد أفناهم، ورَعْبَلَت المعارك في الغزوات قواهم[٥]، فلم يبق لهم منها إلا ما لا قوام له أمام أنفاس جند الله وعزائمهم.

ولـم يجدوا لهم ملجأ إلا أن يعودوا يسـتنجدون بداهيتهم، سـيد البطحاء، أبي سـفيان بـن حرب وهو يتهـاوى من الفزع والهلـع، ولم يكفهم ما باء به من السـخطة والفشـل والخزي والخـذلان حين بعثوه قبـل ذلك ليجدد عهـد الحديبية ويزيد فـي مدة الهدنة، فقد لقي فـي ذلك البعث من الذلة والمهانة ما لاحقـه في مجاهـره ومكامنه، ولم يترك لـه مكانًا يتنفس فيه، ولكـن داهية قريش الأشـمط، فقد كلَّ ذلك ولقـي عوضًا عنه ما لقي من هند في سـاعةٍ يتكاذب فيهـا المتغاضبون، وقريش في مجالسـها وبيوتها تمسـك بأنفاسـها، وهي لا تدري إلا ما ظهـر لها من انتفاخ العنجهية وتورم البأو الأجوف[٦]، والغرور المسـتكبر، فبعثت داهيتها أبا سـفيان مرة أخرى إلى رسـول الله ﷺ ليأخـذ لها منه الأمان على أنفسـها وأموالها وأغراضها متعززة بتراث جاهليتها المسلوب.

---

(٥) رعبلتهم المعارك: مزقتهم. (المجلة)

(٦) البأو: التكبر. (المجلة)

ذلة وهوان بعد العزة والطغيان

واخزياه؟! قريش بهيلها وهيلمانها، وعنجهيتها وغرورها، وبأوها واستكبارها في الأرض، قريش التي أبت وقت شموخها وقوتها الظالمة أن تقبل هدى الله الذي جاءها به رجل من أنْفَسها وأنفُسها، تعلم صدقه وأمانته، ومدخله ومخرجه، وما كان عليه من مكارم الأخلاق، وسواء السريرة منذ نشأته بينها، وأبت أن تترك من قَبِل هذا الهدى المنير آمنا في سربه، أمينًا على دينه وعقيدته، فآذت طلائع الإيمان وصبت عليهم البلاء صبًا وهم صابرون محتسبون، يتأسون برسول الله ﷺ فيما يلقى من صور الأذى وفجور المحن والكوارث، حتى أخرجته وأخرجت الذين آمنوا برسالته وهداه من ديارهم وأموالهم وعشائرهم مهاجرين إلى دار الأمن والإيمان، ومتبوأ اليقين والإسلام.

قريش هذه تأتي اليوم ذليلة مفزعة مرعوبة، خائفة منتفضة تطلب من مخذولها – سيد البطحاء أبي سفيان بن حرب، الذي عرفته في دهيه ومداهناته، ولفه ودورانه في قيادة عيرها والفرار بها، ولم تعرفه قط في بطولة معركة إلا مخدوعًا بسحر أخبث لعين، حيي بن أخطب فرعون فراعنة اليهود في تجمعات الخندق والفرار بها مهزومًا مدحورًا ـ أن يستأمن محمدًا ﷺ، وهي لا تنسى مواقف طغاتها معه ومع أصحابه، حين أخرجوهم من ديارهم إلى غربة لا يؤنسهم فيها إلا إيمانهم وما وجدوه في

مهجرهم من إخاء وإيثار، ومحبة وبذل للمكارم.

وخرج مخذول قريش، سيد بطحائها ومعه حكيم بن حزام، وبديل ابن ورقاء الخزاعي ليأخذ لقريشه أمانًا من محمد ﷺ، فوجد الطريق مقفلة في وجهه لا يمر فيها إلا من كان حاملًا جواز مرور مختوم بخاتم أمير الأنقاب.

ووقف المسير بداهية قريش وصاحبيه عند مر الظهران، فلما رأوا عسكر رسول الله ﷺ في أهبته الحربية الكاملة، وكثافة جنده أفزعهم ما رأوا، وأرعبهم كثرة النيران التي أوقدها عسكر المسلمين بأمر رسول الله ﷺ التي كانت كأنها نيران عرفة، وهي أعظم نيران عرفتها الجاهلية الجاهلة، فقال داهية قريش أبو سفيان مرعوبًا مفزعًا لصاحبيه حكيم وبديل: ما هذه النيران، والله لكأنها نيران عرفة!! فقال بديل بن ورقاء: هذه نيران بني عمرو، يعني نيران خزاعة، وبينا أبو سفيان وحكيم وبديل يتقاولون رآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأخذوهم.

وعند ابن أبي شيبة من مرسل أبي سلمة: وكان حرس رسول الله ﷺ نفرا من الأنصار وكان عمر بن الخطاب عليهم تلك الليلة، فجاءوا بهم، فقالوا: جئناك بنفر أخذناهم من أهل مكة، فقال عمر وهو يضحك إليهم: والله لو جئتموني بأبي سفيان ما زدتم، قالوا: والله قد أتيناك بأبي سفيان، فقال: احبسوه، فحبسوه حتى أصبح فغدا به عمر على رسول الله ﷺ،

واستسلم أبو سفيان ذليلًا بين يدي رسول الله ﷺ .

وفي رواية أن العباس بن عبدالمطلب ـ وكان قد أسلم قديمًا ـ فيما تقول بعض الروايات ـ وكان يكتم إسلامه لمصلحة المسلمين الذين بقوا في مكة ـ لقيهم فأجارهم وأدخلهم على رسول الله ﷺ ، فأسلم بديل بن ورقاء ، وحكيم بن حزام ، وتأخر إسلام أبي سفيان ، فتركوه يرجع إلى قريش ليخبرهم بما رأى وسمع ، فلا ترتفع رءوسهم أمام كتائب الإسلام ، ويتحقق المقصد الأسنى لرسول الله ﷺ في عدم نشوب حرب بينه وبين قريش .

حبس أبي سفيان عند مضيق الجبل بإشارة الصديق ليرى قوة المسلمين

فقال أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- كما في مرسل أبي سلمة، ويحيى بن عبد الرحمن عند ابن أبي شيبة - لما ولّى أبو سفيان: يا رسول الله لو أمرت بأبي سفيان فحبس على الطريق؟ وفي مغازي موسى بن عقبة أن العباس قال للنبي ﷺ: لا آمن أن يرجع أبو سفيان فيكفر، فاحبسه حتى يرى جنود الله، ففعل، فقال أبو سفيان: أغدرًا يا بني هاشم؟ قال العباس لا، ولكن لي إليك حاجة، فتصبح فتنظر إلى جنود الله وما أعد الله للمشركين، وذكر الواقدي أن العباس قال لأبي سفيان: إن أهل النبوة لا يغدرون.

وقال النبي ﷺ للعباس: احبسه عند خطم الجبل، أي مضيقه ليرى كتائب المجاهدين، ويرى أهبتهم، فلا يفوته رؤية أحد من جنود الله، ولا يفوته شيء من أهبتهم، ليزداد رعبه، ويخبر قومه بما رأى، فلا تُرفع لهم رأس في النهوض للقتال.

فحبسه العباس حيث قال له رسول الله ﷺ حتى أصبح الناس، وقام قائم الحق ينادي بالأذان لصلاة الصبح، فأجابه العسكر بأصوات مدوية، ففزع داهية قريش أبو سفيان فزعًا شديدًا، تزايلت منه مفاصله، وتفككت روابط أعضائه، وأخذه الدهش والذهول فلم يدر ماذا يقول، وماذا يفعل، ثم قال للعباس: ما يصنع هؤلاء؟ قال العباس: الصلاة.

وعنـد ابـن أبي شـيبة: ثار المسـلمون إلى طهورهـم، فقال أبو سـفيان للعباس: ما للناس؟ أمروا بشـيء؟ قال العباس: لا، ولكنهـم قاموا للصلاة، فذهـب العباس به إلى مصلى النبي ﷺ بالناس، فلما رأى أبو سفيان اقتداء جموع المسلمين به ﷺ في الصلاة قال: ما رأيت كاليوم طاعة قوم، جمعهم من هنا وها هنا ولا فـارس الأكارم، ولا الروم ذات القرون بأطوع منهم له، يا أبا الفضـل أصبح ابن أخيك والله عظيـم الملك، فقال العباس: إنه ليس بملك، ولكنها النبوة فقال أبو سـفيان ـ والرعب قد اقتلع قلبه من بين أضالعه ـ أَوَذاك! وهكذا كان إيمان داهية قريش.

ولمـا فـرغ ﷺ من صلاتـه بأصحابه رأى أبا سـفيان، فقال لـه: «ويحـك يا أبا سـفيان؟ ألم يأن لـك أن تعلـم أن لا إله إلا الله؟» فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شـيئًا. وزاد الواقدي أن أبا سـفيان قال: لقد استنصرت إلهي، واسـتنصرت إلهك، فوالله ما لقيتك مـن مرة إلا نصرت علي، فلو كان إلهي محقًا وإلهك مبطلًا لقد غلبتك.

ثم قال له رسول الله ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسـول الله؟» فقال أبو سـفيان: بأبي أنت وأمي، ما أحلمـك وأكرمـك، وأوصلك أما هذه ففي النفس منها شـيء، فقال العباس –رضي الله عنه– لمخذول قريش وسـيد بطحائها وهو يرى تأبيه عن الإقرار برسـالة محمد ﷺ: ويحك أسـلم،

واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله . . .

وقد استكشف العباس- رضي الله عنه- ما في دخيلة سيد بطحاء قريش أبي سفيان بن حرب من عناد وتأب متغطرس عن الإذعان بالإسلام وقبول هدايته، وخلع مواريث الجاهلية، وتعاص عن الإيمان برسالة رسول الله ﷺ(٧)، فسلك به منعرجات مواريثه الجاهلية ليستنزله من علياء عنجهيته لينقذه من براثن الدهي والمداهنة، ويجعله على مشارف الجادة ليدخله في رياض الإسلام، والعباس -رضي الله عنه- أعرف بقريش ومن بقي فيها من ذوي الزعامات، وكان يخشى على أبي سفيان - إذ لمح نهزة - أن يرتد.

فقال العباس -رضي الله عنه-: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له، فقال ﷺ - وهو يعلم طبيعة قريش وطبيعة زعاماتها - : (نعم).

وعند ابن أبي شيبة أن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- قال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب السماع والشرف، فقال ﷺ : «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، فقال أبو سفيان: وما تسع داري؟ فقال ﷺ : «ومن دخل المسجد فهو آمن» فقال أبو سفيان: وما يسع المسجد؟ فقال ﷺ : «ومن أغلق بابه عليه فهو آمن»، فقال أبو سفيان: هذه واسعة.

ولما أراد أبو سفيان الانصراف إلى قومه بعد أن رأى بعين

(٧) التعاصي عن كذا: الامتناع عنه. (المجلة)

بصـره كثافـة جند الله وحـرد كتائـب المجاهديـن[٨]، قال له العبـاس: النجـاء إلى قومك، فأسـرع إلى مكة حتـى إذا جاءها صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، أسـلموا تسلموا، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقالوا له: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ فقال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه، وقالت: اقتلوا الحميت الدسـم الأحمس[٩]، قبح من طليعة قوم، فقال أبو سفيان لقومه: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فقد جاء محمد بما لا قبل لكم به، فتفرقوا إلى دوركم وإلى المسجد.

وإنما حذر أبو سفيان قومه هذا التحذير الشديد المرعب خوفًا عليهم أن تطأهم كتائب الفتح، فينالهم من القتل والدمار ما لا قبل لهم برده، والوقوف أمامه؛ لأنه رأى من كثافة جيش الجهاد وعدته وهو محبوس عند مضيق الجبل شيئًا أذهله وأفزعه على قومه.

وكان رسـول الله ﷺ - بعد أن أمر العباس -رضي الله عنه- بحبـس أبي سـفيان عند خطـم الجبل ليرى جنـد الله وأهبتهم للفتح - أمر مناديًا ينادي: «لتصبح كل قبيلة عند راية صاحبها، وتظهر ما معها من الأداة والعدة».

(٨) الحـرد الجمع ومنه قوله تعـالى (W V U T) (القلم: ٢٥) أي على جمع الثمار. فمعنى قوله (حرد كتائب المجاهدين) معناه اجتماعها. (المجلة)
(٩) الحميت وعاء السمن والمراد البدين. (المجلة)

إظهار قوة جيش الإسلام لتحقيق إرعاب قريش دون حرب

وأصبح الناس على ظهر، وقدم بين يدي رسول الله ﷺ، ومرت الكتائب بألويتها وقادتها، والكتائب على راياتها، كتيبة كتيبة على أبي سفيان - وهو يراها منتفضًا مرعودًا مرعوبًا - بألويتها وقادتها وراياتها وعدتها وأداتها تحقيقًا لأمر رسول الله ﷺ، فجعل أبو سفيان يسأل العباس -رضي الله عنه- عن كل كتيبة، فإذا قيل له هم بنو فلان، قال: ما لي ولبني فلان، حتى مرت عليه أشجع برجالها وأهبتها فسأل عنهم وأخبر بهم، فقال هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد، فقال له العباس -رضي الله عنه-: أدخل الله تعالى الإِسلام في قلوبهم، فهذا فضل الله. ثم سأل أبو سفيان العباس عن مرور كتيبة رسول الله ﷺ، فقال العباس- رضي الله عنه-: لو أتت الكتيبة التي هو فيها لرأيت الخيل والحديد والرجال، وما ليس لأحد به طاقة، فقال أبو سفيان ومن له بهؤلاء طاقة؟ وجعلت الكتائب تمر، كل ذلك يقول أبو سفيان: ما مر محمد؟ فيقول العباس -رضي الله عنه-: لا، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، وهم في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق - أي سواد العين - قال أبو سفيان: من هذه؟ قال العباس: هؤلاء الأنصار، عليهم سعد

بن عبادة، معه رايتهم، فقال سعد بن عبادة لما رأى أبا سفيان وهو يمر بالراية النبوية: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال أبو سفيان: يا عباس، حبذا يوم الذمار، ومعنى هذه الكلمة من أبي سفيان التي ارتمى بها في أحضان التزلف إلى العباس -رضي الله عنه- أنه لشدة ما داخله من الرعب والخوف على نفسه وقومه فهم من كلمة سعد بن عبادة أنه يتوعده، ويتوعد قومه ليوقع بهم جزاء ما قدمت أيديهم وألسنتهم من فجور في إيذاء رسول الله ﷺ، وإيذاء أصحابه الذين استضعفوا في مكة قبل الهجرة.

فقد كذبوه ﷺ، وسخروا منه، واستهزءوا به، وتقولوا عليه، وقاتلوه ووقفوا سدًا أمام رسالته، حتى أخرجوه من بلده حرم الله ومأمنه، وهي أحب بلاد الله إليه.

وآذوا أصحابه بالقول والفعل، وأنزلوا بهم من المحن والبلاء ما لو نزل بالشوامخ الرواسي لدكها، فلجأ إلى العباس -رضي الله عنه- يستنهض همته، ويحرك في نفسه عوامل مروءته ومكارم أخلاقه، ويحتمي به وبمكانته عند رسول الله ﷺ، ومحبته له، وإعظامه له، وقبول شفاعته.

وكأن أبا سفيان يقول للعباس: هذا يومك الذي يلزمك فيه حفظي وحمايتي وحفظ قومك وبيضتك لمكانك من

رسـول الله ﷺ ، ومنزلتك عنده، ومحبته لـك وإقباله عليك، وقبـول مشـورتك مـن أن ينالنـي وأنا معـك مكـروه، أو ينال قومك تسلط الغزاة عليهم، ليستبيحوا حرماتهم، ويستأصلوا شأفتهم.

وعند ابن إسـحاق أن كلمة سعد بن عبادة المتوعدة سمعها عثمـان بن عفان، أو عبـد الرحمن بن عوف -رضي الله عنهما، فقال من سـمعها منهما: يا رسول الله، ما نأمن أن تكون لسعد في قريش صولة، وقيل: إن الذي سـمعها وقال لرسول الله ﷺ هذه المقالة المسـتعطفة لرسـول الله ﷺ هو عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، واسـتبعد ذلك ابن حجر بأن عمر كان ظاهر العداوة لهم، وهذا لا يبعد عن الصواب.

وفـي روايـة أن أبـا سـفيان قال للنبـي ﷺ لما حـاذاه وهو يمـر في كتيبتـه الخضراء: أمـرت بقتل قومك؟ فقال رسـول الله ﷺ: «لا»، فذكر أبو سفيان ما قاله سعد بن عبادة، وناشده الله والرحـم في قومه، وقال له في مناشـدته: إنـك أبر الناس، وأرحمهـم وأوصلهـم، فقال ﷺ: «يـا أبا سـفيان، اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله تعالى قريشًـا» وأرسل ﷺ إلى سعد بن عبـادة، فأخذ الراية منه، فدفعها إلـى ابنه قيس، وهذا أصح ما قيل في الروايات، إذ رأى ﷺ بهذا التصرف السياسي الحكيم

أن الراية لم تخرج عن سعد إذ صارت لابنه، وهناك روايات تقول: إن النبي ﷺ بعث إلى سعد عليًا ليأخذ الراية منه، وقال لعلي: «كن أنت الذي تدخل بها» وفي رواية أنه ﷺ أعطاها للزبير -رضي الله عنه- ليدخل بها ويركزها عند الحجون.

ودخلت كتائب الجهاد بثقلها مكة آمنة مطمئنة إلى فضل الله وقوة تأهبها القتالي، وأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يدخل من كدي بأسفل مكة، ودخل ﷺ بكتيبته الخضراء من كداء بأعلى مكة كما هو الصحيح الذي يدل عليه صراحة حديث عائشة -رضي الله عنها عند البخاري، عن هشام بن عروة، عن أبيه، أن عائشة أخبرته أن النبي ﷺ دخل عام الفتح من كداء التي بأعلى مكة، وما جاء في الروايات غير ذلك يظهر أنه من قبيل الاشتباه على بعض الرواة.

أمر رسول الله ﷺ بالكف عن القتال إلا دفاعًا

وأمر رسول الله ﷺ المجاهدين أن يكفوا أيديهم، ولا يقاتلوا إلا من بدأهم بالقتال، ولما دخل خالد بن الوليد -رضي الله عنه- من حيث أمره رسول الله ﷺ لقي جماعة من فلال قريش الذين استبقاهم الهرب والفرار من السيف، فيهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو متجمعين ليقاتلوا كتائب الفتح، فناوشوا خالدًا وجنده الذين كانت رايتهم في يده، وهم بنو سليم فقتلوا من جند خالد مسلمة بن الميلاء الجهني، فاضطر خالد -رضي الله عنه- لمدافعتهم بالقتال، فقتل منهم رجالًا، فانهزموا فرارًا مولين الأدبار، حتى دخلوا البيوت، وأغلقوا دونهم أبوابها، وفرت منهم طوائف إلى أعالي التلال ورءوس الجبال، وتبعهم المسلمون، وأكثروا من القتل فيهم، ورأى ذلك حكيم بن حزام وأبو سفيان بن حرب - ولم يكونا مع المقاتلين - فصاح حكيم بن حزام وأبو سفيان في قومهم وهم يفرون: يا معشر قريش، علام تقتلون أنفسكم، من دخل داره فهو آمن، ومن وضع سلاحه فهو آمن.. فجعل المهزومون يسرعون ويقتحمون الدور، ويغلقون أبوابها، ويطرحون السلاح في الطرقات، فيأخذه المسلمون، ولم يرفع بعد ذلك أحد من قريش رأسه.

ونظر النبي ﷺ فرأى بارقة السيوف فقال: «ما هذا وقد نهيت عن القتال» فقال له أصحابه: نظن أن خالدًا بُدئ بالقتال

وقوتــل فقاتل دفاعًا عن نفســه وجنده، فقــال ﷺ لخالد: «لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال؟» فقال خالد: هم بدءونا بالقتال وقد كففت يدي ما استطعت، فقال ﷺ : «قضاء الله خير».

وفــي رواية عند الطبراني عن ابــن عباس -رضي الله عنهما، خطــب رســول الله ﷺ فذكــر حرمــة مكــة، وأن الله أحلهــا لرسوله ﷺ ساعة من النهار، ثم عادت حرمتها، فقيل له ﷺ: هــذا خالد بن الوليد يقتل، فقــال ﷺ : «قم يا فلان فقل لخالد يرفع يده عن القتل» فأتى الرجل خالدًا فقال له إن نبي الله يقول لك: «(اقتل من قدرت عليه) فقتل منهم ســبعين، وجاء الخبر إلى رســول الله ﷺ، فأرســل إلى خالد: «ألم أنهك عن القتل؟» فقــال خالد: جاءنــي فلان، فأمرنــي أن أقتل من قــدرت عليه، فأرســل النبــي ﷺ إلى الرجل الــذي كان قد بعثــه لخالد يأمره برفــع يده عن القتل، فقال له: «ألم آمــرك أن تنذر خالدًا» فقال الرجل لرســول الله ﷺ : أردت أمرًا، فــأراد الله أمرًا، وكان أمر الله فوق أمرك، وما اســتطعت إلا الذي كان، فسكت النبي ﷺ وما رد عليه.

وهــذه الروايــة صعبــة التأويل جــدًا إذا صحت ســندًا؛ لأنه كيف يعقل أن يبعث رســول الله ﷺ رجلًا يختــاره، فيقول له: «قم يا فلان» ويســميه باسمه برســالة إلى أحد أبطال قادة جند الجهاد - وهو أشهر وأعرف قواد جيش الفتح - برسالة موجزة في عبارتها وأســلوبها، بينة الهــدف في مقصودها، وهي: «قل

لخالـد فليرفـع يده عن القتـل» فيذهب الرجـل، ويبلغ غير ما أرسـل به إلـى خالد، يبلغـه رسـالة مناقضـة كل المناقضة في ألفاظهـا وأسـلوبها وهدفها لرسـالة رسـول الله ﷺ التي كلفه إبلاغها خالد بن الوليد ليرفع يده عن القتل؟.

ثم كيف يعقل أن ينسـى الرجل المبعوث إلى خالد برسـالة رسول الله ﷺ نص رسـالته ﷺ على إيجازها الذي لا تجاوز به جملـة واحدة، مؤلفة من عدة حـروف لا تزيد على عدد أصابع اليدين، ثم يبلغ خالدًا رسـالة مختلفة لم يقلها النبي ﷺ تزيد في كلماتها على الرسالة المكلف إبلاغها؟.

وإذا أحضـر النبـي ﷺ هذا الرجل وسـأله عما بلغـه إلى خالد ليعرف وجهة نظره فيما بلغه، فيقول له: «ألم آمرك أن تنذر خالدًا» والإنـذار هو التخويف الشـديد من عواقب المنذر مـن أجله، وهو الاسـتمرار في القتـل، فيقول هـذا الرجل في رده علـى النبي ﷺ متجهمًـا متغاضبًـا جافيًا كأنه يذكر رسـول الله بأمـر فاته؟ فيقول مخاطبًا له ﷺ: أردت أمرًا، وأراد الله أمرًا، وكان أمر الله فوق أمرك.

هـذه الجفوة المتجهمـة المتغاضبة فـي مخاطبة النبي ﷺ وحدها كافية في إسـقاط هذه الرواية عن القبول، وزَعمُ أن هذا الرجـل أنصـاري، وأنه تأول الـكلام لا محل لـه، ولا ينبغي أن يقال، وإلا فأين مكان التأويل؟ أفي رسـالة النبي ﷺ إلى خالد ليرفـع يده عـن القتل، وهي واضحة شـديدة الوضوح، لا إبهام فيها ولا غموض، وهي شديدة الإِيجاز لا تعدو جملة واحدة؟ أم

في كلام هذا الرجل الذي اخترعه فبلغه خالدًا؟

وكيف يسوغ التأويل باحتمال أن هذا الكلام المخترع الذي بلغه الرجل إلى خالد سبق إلى سمع الرجل فبلغه خالدًا، وقتل خالد بسببه سبعين من قريش؟ وليس بين كلام النبي ﷺ الذي بعث به هذا الرجل إلى خالد وكلامه المخترع الذي بلغه خالدًا أدنى اشتباه في لفظه ومعناه، فكيف يسبق إلى سمعه نقيض ما بعثه به رسول الله ﷺ ليبلغه إلى خالد ليرفع يده عن القتل؟

ثم إن رد هذا الرجل الذي قيل إنه أنصاري على سؤال رسول الله ﷺ جاءت الرواية به في أسلوب جاف، متجهم متغضب، يبعد جدًا أن يصدر في مخاطبة رسول الله ﷺ من رجل مؤمن صادق الإيمان، صفي اليقين، يعرف للنبي ﷺ قدره المنيف، ومنزلته من الله تعالى ومكانته في قلوب أمته، ويعلم أن الله تعالى أدب المؤمنين أدبًا خاصًا في مخاطبتهم له ﷺ، وعلمهم كيف يتحدثون إليه، وكيف يسمعون منه، وكيف يستجيبون لأوامره، رفعًا لقدره ومنزلته فوق أقدار ومنازل جميع خلقه، تشريفًا لمقامه الأشرف بين أصحابه، وأجيال أمته من بعدهم، فقال تعالى يصف خُلَّص أهل الإيمان:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن

شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ (النور : ٦٢ - ٦٣).

ففي هاتين الآيتين الكريمتين منهج تعظيم قدر النبي ﷺ، وبيان ما ينبغي أن يكون عليه حال المؤمنين في جميع أمورهم التي تربطهم به ﷺ نبيًا ورسولًا، أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق، وخلع عليه جلابيب حرصه عليهم، وعزة عنتهم عليه، وخصه باسمين من أسمائه الحسنى، فجعله رءوفًا رحيمًا بالمؤمنين، وهذا تعظيم لم يكن قط لغيره ﷺ ؛ لأنه تعظيم يرتبط بأصل الإيمان برسالته وهدايته.

قال الزمخشري في كشافه: أراد الله عز وجل أن يريهم عظيم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه

﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾

فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله، وجعلها كالتشبيب له، والبساط لذكره، وذلك مع تصدير الجملة بإنما، وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبرًا عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين، ثم عقبه بما يزيده توكيدًا وتشديدًا حيث أعاده على أسلوب آخر، وهو قوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾

وضمنه شيئًا آخر، وهو أنه جعل الاستئذان كالمصدق بصحة الإِيمان، وعرَّض بالمنافقين وتسللهم لواذًا.

والأمر الجامع الذي يجمع له الناس، وذلك نحو مقاتلة عدو، أو تشاورٍ في خطب مهم، أو تضامٍ [اجتماع] لإِرهابِ مخالف، وفي قوله: ﴿ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ ﴾ أنه خطب جليل، لابد لرسول الله ﷺ فيه من ذوي رأي وقوة، يظاهرونه عليه، ويعاونونه، ويستضيء بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفايتهم، فمفارقة أحدهم في مثل تلك الحال مما يشق على قلبه ويشعث عليه رأيه، فمن ثمة غلظ عليهم، وضيق عليهم الأمر في الاستئذان مع العذر المبسوط ومساس الحاجة إليه، واعتراض ما يهمهم ويعنيهم، وذلك قوله:

﴿ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ ﴾

وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أن الأحسن الأفضل أن لا يحدثوا أنفسهم بالذهاب ولا يستأذنوا فيه.

ثم قال الزمخشري في تفسير قوله جل وعلا:

﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا ﴾

لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمي بعضكم بعضًا، ويناديه باسمه الذي سماه به أبواه، ولا تقولوا يا محمد، ولكن يا نبي الله، ويا رسول الله، مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض والتواضع.

وقال القرطبي في معنى قوله تعالى:

﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا﴾

أي عظموه وخاطبوه في رفق ولين، وغير تجهم، وروي عن قتادة في تفسيرها: أمرهم أن يشرفوه ويفخموه.

فأين يقع ما جاء في رواية الطبراني منسوبًا إلى الرجل الذي قيل إنه أنصاري، وأن النبي ﷺ اختاره، وسماه باسمه مبعوثًا إلى خالد ليقول له إن رسول الله ﷺ يقول لك: «ارفع يدك عن القتل» فبلَّغ خالدًا رسالة تناقض رسالة النبي ﷺ في ألفاظها ومعانيها وهدفها، فلما سأله رسول الله ﷺ عن إبلاغه خالدًا ما لم يرسله به ﷺ تجهم وجفا، وتغاضب وخاطب النبي ﷺ بأسلوب لم يشم رائحة التوقير، والتعظيم، وحسن الأدب، ولطف القول ولين الجانب، ورقة الألفاظ، وخفض الصوت والتواضع مما ينبغي أن يتحلى به كل مؤمن صادق الإيمان.

من هذا الأدب الرفيع الذي أدب الله به المؤمنين جاءت به هاتان الآيتان الكريمتان اللتان أبرز الزمخشري وغيره ما فيهما من تشريف وتعظيم لرسول الله ﷺ ، وما جرى مجراهما من آيات كثيرة في سور متعددة من سور القرآن الكريم، نزلت لتبين للمؤمنين مقام شرف رسول الله ﷺ وعظيم منزلته عند ربه، مما يوجب على المؤمنين برسالته أن يكونوا في مخاطباتهم معه على سنن الإجلال والتعظيم.

وقد سجل الله الفلاح بأسلوب الحصر للذين تأدبوا بهذا الأدب القرآني الرفيع في قوله تعالى:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

وكما قال تعالى في الإنافة بمقامه الأشرف، وبيان حقه على كل مؤمن ومؤمنة:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

وقد ذهب علماء السلف إلى أن الضمير في قوله جل شأنه:

﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ راجع إلى رسول الله ﷺ ومعناه: تعظموا رسول الله ﷺ وتفخموه في أدب المخاطبة معه والتحدث إليه ومجالسته.

ومن هذا القبيل قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

(الحجرات: ٢)

في هذه الآية الكريمة من الحث على التزام أرفع منازل الأدب في مخاطبة رسول الله ﷺ بحيث لا يغمر صوته في جهارته صوت رسول الله ﷺ في محادثته.

والنهي عن الجهر له ﷺ بالقول كجهر بعض المتخاطبين لبعض في مخاطباتهم ومحاوراتهم ومحادثاتهم التي تستدعيها أمور دينهم ودنياهم، قد جعل مخالفته في المخاطبة سببًا لإحباط العمل، وقد يكون هذا الإحباط دون شعور من المخالف للنهي؛ لأنه لم يستحضر في مخاطباته النبي ﷺ ما يجب له من توقير وتعظيم وهيبة تحمل مخاطبه على خفض الصوت، ولين القول، ورقة الألفاظ، وهذا أمر خطير ووعيد شديد لمن يتبصر في أمره، ليكون مستحضرًا بقلبه تعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره.

ولهذا أتبع هذه الآية الكريمة بآية امتدح فيها قومًا من ذوي الأدب الرفيع في مخاطبة النبي ﷺ فقال عز شأنه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ (الحجرات: ٣)

فهذا ثناء على الذين اعتصموا بأدب توقير رسول الله ﷺ، وتعظيمه في مخاطباتهم وأحاديثهم في مجالستهم له ﷺ كما تقتضيه (العندية) في قوله: ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾.

ومعنى ذلك أن هؤلاء الصفوة الذين استمسكوا بعواصم الأدب الرفيع مع رسول الله ﷺ فعزروه ووقروه، وعظموه وأظهروا إجلاله وتبجيله إذ يكونون معه ولو لم يكونوا في مخاطبة له.

وللزمخشري نفحات من روعة الأسلوب فسر بها هذه

الآيـات فـي كشـافه رأينا أن نقبسـها منه لما فيها من إحسـان فـي أداء المعنـى القرآنـي الذي يبيـن ما ينبغـي أن يكون عليه المؤمنون من تفخيم شـأن رسول الله ﷺ وتشـريفه بأفضل ما يجب له مـن التوقير والتعظيم، فقال: أعاد النداء عليهم – أي في قوله:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾

اسـتدعاء منهم لتجديد الاسـتبصار عنـد كل خطاب وارد، وتطرية الإنصات لكل حكم نازل، وتحريك منهم لئلا يفتُروا، ويغفلـوا عن تأملهم ومـا أخذوا به عند حضور مجلس رسـول الله ﷺ مـن الأدب الـذي المحافظة عليه تعـود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم.

وذلـك لأن فـي إعظـام صاحـب الشـرع إعظامَ مـا ورد به، ومسـتعظم الحق لا يدعه اسـتعظامه أن يألو عمـلاً بما يحدوه عليه، وارتداعًا بما يصده عنه، وانتهاء إلى كل خير.

والمراد بقوله:

﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾

أنـه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الـذي يبلغه بصوتـه، وأن تغضوا منها بحيث يكـون كلامه عاليًا لكلامكـم، وجهـره باهرًا لجهركـم، حتى تكـون ميزته عليكم لائحة، وسـابقته واضحـة، وامتيازه عن جمهوركم كشـية الأبلق

غيـر خـافٍ[١٠]، لا أن تغمروا صوتـه بلفظكم، وتبهـروا منطقه بصخبكم.

وبقوله: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾

أنكـم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نُهيتم عنـه مـن رفع الصوت، بل عليكم أن لا تبلغـوا به الجهر الدائر بينكـم، وأن تتعمـدوا في مخاطبتـه القول البيـن المقرب من الهمس الـذي لا يضاهي الجهر، كما تكـون مخاطبة المهيب المعظم، عاملين بقوله عز شأنه: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾

وليس الغرض من النهي عن رفع الصوت الجهر ما يقصد به الاسـتخفاف والاسـتهانة لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون، وإنما الغرض صوت هو في نفسـه والمسـموع من جرسـه غير مناسـب لما يهاب به العظمـاء، ويوقر الكبراء فيتكلف الغض منـه، ورده إلى حد يميل به إلى ما يسـتبين فيـه المأمور به من التعزير والتوقير.

ولم يتناول النهي أيضًا رفع الصوت الذي لا يتأذى به رسول الله ﷺ وهو ما كان منهم في حرب، أو مجادلة معاند، أو إرهاب عدو، فلم ينهوا عن الجهر مطلقًا حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمـس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مقيد بصفة أعلى الجهـر المنعوت بمماثلة ما قد اعتـادوه منه فيما بينهم، وهو

(١٠) الشية: العلامة. (المجلة)

الخلو عن مراعاة أبهة النبوة، وجلالة مقدارها، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها.

ومن البداهة أن هذه الآيات وأمثالها في تأديب الأمة وتعليمها إنما جاءت بأسلوبها المعجز لتفخيم شأن النبي ﷺ وإظهار رفعة قدره المنيف، وسمو منزلته ﷺ فوق كل منزلة أحد من الخلق، وهي مسوقة في مواضعها من القرآن الكريم لتعليم الأمة أفرادًا وجماعات الأدب الأكمل مع النبي ﷺ في كل ما يتصل بمخاطبته، والتحدث إليه، والإصغاء إلى حديثه، ومجالسته حتى يستشعر المؤمن بقلبه وروحه وكافة إحساساته ومشاعره ما أوجبه الله تعالى من توقيره ﷺ توقيرًا يجلي رفيع قدره، وعظيم مقامه، ويظهر تشريف الله تعالى له ﷺ بما ميزه به على سائر الخلق، وقد اتفق أهل العلم من أئمة أعلام الأمة على أن حرمته ﷺ في حياته البرزخية كحرمته في حياته الدنيوية.

وقد أجاد ابن حجر فأحسن إذ أسقط ما نسب إلى الرجل من الكلمات الجافية المتجهمة، واقتصر على ذكر قوله لخالد: إن نبي الله يقول لك: «اقتل كل من قدرت عليه» فقتل خالد سبعين، ثم اعتذر الرجل للنبي ﷺ فسكت عنه ﷺ ولم يذكر ابن حجر الكلمات المنسوبة للرجل في اعتذاره للنبي ﷺ وهي موضع النظر - التي أحسن بإسقاطها وعدم ذكرها، وكأن ابن حجر لمح ما فيها مما لا يليق من الجفوة، والتجهم فتركها.

وهذا مسلك جزئي سلكه ابن حجر في كلامه على هذا

الحديث، فأحســن إذ ترك من الكلام مــا هو موضع المؤاخذة، ولكــن كان يجب على الحافظ ابن حجــر أن ينظر في الحديث نظرة شاملة، تبين صحة سنده، واستقامة متنه ومعناه وأسلوبه، ولا عليه أن ينصح بما هو الحق في صحة الحديث سندًا ومتنًا، لا سيما أن المعروف عن كافة الصحابة صادقي الإيمان التفخم بتعظيم رســول الله ﷺ وتوقيــره إلى درجة تبلــغ ذروة التقدير لشــرفه ومقامه ورفعــة منزلته، فإذا غلب التغضــبُ أحدَ مَنْ لم يكــن منهم قــادرًا على مغالبة طبيعته فــلا حرج على من يصرح بغلــط من غلط، أو يبين أن الحديث لم تثبت صحته، ولا داعي لبذل الجهد وتحمل المشقة في تأويله تأويلًا متعسفًا.

وإنما أطلنا النفس قليلًا في مناقشــة ما جاء في هذا الحديث عنــد الطبراني- من أســلوب جــاف متجهم وكلمــات متغضبة نافــرة في مخاطبته ﷺ مما يجافي ما يجب له صلوات الله عليه من توقير وتعظيم، وخفض جناح الرقة في الخطاب، لنذكر بما هو واجب مُضَيّق على أمته[١١] أفرادًا وجماعات من رفيع الأدب والتفخيــم لشــأنه، ومحبته محبة تعلو علــى كل محبة، واتباعه اتباعًا يجعل هوى كل مؤمن تبعًا لما جاء به ﷺ في كل ما يثبت عنــه من أحــكام وآداب، وتربية، وســلوك اجتماعــي يقوم على أكرم مكارم الأخلاق- لنلفت نظر المجتمع المســلم أينما كان

(١١) الواجب المضــيَّق هو الواجب الذي لا يجوز تأخيره لأن وقته يفوت ويقابله الموسَّع. (المجلة)

منه فرد أو جماعة في أرض الله إلى أن المتحدثين عنه -صلوات الله وسلامه عليه- لا سيما شباب الإسلام- ينبغي أن يكونوا على بصيرة وحذق بما يحوكه الملحدون لهم من نسج الميوعة والانحلال الخلقي، ليخرجوا هذا الشباب من إطار الإسلام إلى الانطلاق الذي يسميه لهم الملحدون تحررًا، وهو في حقيقته انسلال عن الإسلام دون شعور، والله تعالى يقول:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾

(الروم: ٤٣)

قال الزمخشري: وقوله ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ كلمة جامعة لما لا غاية وراءه من المضار؛ لأن من كان ضاره كفره فقد أحاطت به كل مضرة.

ويقول تبارك وتعالى:

﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

(إبراهيم: ٨)

والذي يظهر لنا من التأمل في جموع الحوادث التي وقعت منذ وطئت قدم رسول الله ﷺ أرض مكة فاتحًا أن القتال الذي حدث إنما هو وقعة واحدة، هي التي جمع فيها الموتورون من سوابق الغزوات الذين جمعوا لفائف من أوباش قريش وأتباعها

ليقاتلوا جيش الفتح، وينقضوا أمان رسـول الله ﷺ لأهل مكة عامة، وكان أسـبق القـواد المجاهدين دخولًا إلى مكة خالد بن الوليد، معه راية بني سـليم، فناوشـه الأوباش وقادتهم، وكف خالـد بـن الوليـد عن قتالهـم ما اسـتطاع، إطاعة لأمر رسـول الله ﷺ لعامـة قواد جيـش الفتح، إذ قال لهم: «أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم».

وقد أطمع هذا الحلم الكريم أولئك الموتورين وأوباشـهم، فركبهم الشـيطان وزين لهم نقض الأمان وإشـعال نار الحرب، وأرادوها موقعة فاصلة، وحملوا على جند خالد حملة مسعورة، وقتلـوا مـن جنده من قتلـوا، فكان لا بد له أن يدفع عن نفسـه وجنـده، فقاتل فلول الموتورين وأوباشـهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة، أذاقتهم أوجاع الغدر ونقض عهد الأمان، ورأى رسـول الله ﷺ بارقة السـيوف وهي تلمع، فقال: «ما هذا؟ وقد نَهيتُ عـن القتال؟» فقـال له بعض أصحابه: هـذا خالد نظن أنه بدئ بالقتال، فكان لا بد له من أن يدفع عن نفسه وجنده، فقاتلهم، فلما جاء خالد قال له رسـول الله ﷺ «لـم قاتلت؟ وقد نهيتك عن القتال؟» فقال خالد: هم بدأونا بالقتال وقد كففت يدي ما استطعت، فقال ﷺ «قضاء الله خير».

هـذا مجمـل مـا نظن أنـه وقـع، ولكن الـرواة أكثـروا من الروايـات، وأدخلـوا في كل روايـة واقعةً مما وصـل إليهم من واقعـة خالد، وجعلوهـا وقائع مسـتقلة أعطوها فـي رواياتهم

قوائم الوقائع المتعـددة، ولم يثبت لنا من طريق صحيح وقوع معـارك إلا مـا كان من واقعـة خالد التي كانت أصـلًا لما تفرع عنهـا من الوقائـع في الروايـات المختلفـة حتـى أوقفها فرار الموتورين وقادة الأوشـاب، وتجديد الأمان من رسـول الله ﷺ بعد استغاثة أبي سفيان به في قوله: «لا قريش بعد اليوم» فقال النبي ﷺ «مـن دخل داره فهو آمن» وهـذا تجديد للأمان صاح بعده أبوسـفيان وحكيم بن حزام في قومهم: يا معشـر قريش، علام تقتلون أنفسـكم، من دخل داره فهو آمن، فأسـرع الفُرَّار إلـى البيوت يدخلونهـا ويغلقـون أبوابها دونهـم، ويطرحون السلاح في الطرقات.

منزل رسول الله ﷺ يوم الفتح الأعظم

وكان رسـول الله ﷺ ينـزل في قبـة ضربت لـه بالحجون، وقيل له ﷺ ألا تنزل منزلك من الشعب؟ فقال ﷺ «وهل ترك لنـا عقيل منـزلا» وكان عقيل بـن أبي طالب قبل أن يسـلم قد بـاع منزل النبي ﷺ ومنزل إخوتـه أولاد أبي طالب من الرجال والنسـاء التي كانت لهـم بمكة، فقيل لرسـول الله ﷺ فانزل في بعض بيـوت مكة، غير منازلك، فأبـى ﷺ وقال «لا أدخل البيـوت» وكان ﷺ يأتـي المسـجد لـكل صلاة مـن الحجون وكان أبـو رافع مولى العباس بن عبـد المطلب قد ضرب له قبة بالمسجد من أدم، ومعه أم سلمة وميمونة وذِكْرُ ميمونة هنا هو الغريب، فإنه ﷺ لم يبنِ بها إلا في الطريق بسرف.

وفـي روايـة للبخاري عـن أبي هريـرة من طريق أبي سـلمة أنه ﷺ قال: «منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله الخيف»، وفي رواية أخرى للبخـاري أيضًا: «خيف بني كنانة حيث تقاسـموا على الكفـر» والمقصود الإشـارة إلى تحالف قريـش الظالم الكفور وحصرهم بني هاشـم والمطلب بشعب أبي طالب، وتعاهدهم أن لا يناكحوهـم، ولا يبايعوهـم كما فصلنـا قصة هذا الحصار الفاجر الظلوم في موضعه من أحداث مكة قبل الهجرة.

وإنما اختار رسـول الله ﷺ النـزول في خيف بني كنانة يوم الفتح الأعظـم، فتح البلد الأمين واستسـلام أهلها، ودخولهم في الإسـلام بين طائع قد تبين له الرشـد من الغـي، وبين كاره

مكره، حاقد مرعوب مفزع يخاف على رأسه أن تزايل مكانها من عنقه- ليتذكر ﷺ ما كان من قريش من فجور، فقدت فيه مشاعر الإنسانية، وكفر شرس وطغيان وثني مجنون، وعنجهية جاهلية واستكبار مغرور، وظلم جهول، وإيذاء للمؤمنين، وليتمثل ﷺ ما بين يديه ﷺ من نعمة الله عليه وعلى أصحابه بإعزاز دينه وأهله، وإذلال الشرك وحزبه، فيزداد شكرًا لله تعالى على هذه النعمة العظمى، نعمة الفتح الأعظم، فتح مكة بلد الله الحرام، وتطهر الكعبة المشرفة من رجس الشرك ووضر الوثنية(١٢)، وتمكنه ﷺ من دخول بلده المحرم التي جعلها الله حرمًا آمنًا للناس إلى يوم القيامة، ومعه أصحابه من المهاجرين والأنصار، ومن آمن معهم إخوة ترفرف فوق رءوسهم ألوية النصر، وتخفق بين أيديهم رايات الشكر، وهم يرون الذين أخرجوهم بالأمس أذلة مستسلمين يستأمنون رسول الله ﷺ فيؤمنهم، ويتلطف بهم رحمة لهم.

(١٢) الوضر: الوسخ. (المجلة)

فرحة رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم بالفتح الأعظم

وقد كان ﷺ في دخوله مكة مفعم المشاعر، روي الإحساس، مشرق الوجدان، تبرق أساريره بالفرحة العظمى، وتضيء روحه المشرقة بنور تقدير نعمة الله عليه حق قدرها، وعرفانه فضل الله عليه وعلى مجتمعه المسلم ممثلًا في عامة أصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه فكانوا هم المفلحين، وكانت فرحة السابقين الأولين من المهاجرين خاصة- الذين رزحوا تحت آلام البلاء في البلد الحرام على أيدى طواغيت الشرك وطغاة الوثنية قبل هجرتهم فصبروا على ما أصابهم، واحتسبوه عند الله، وهم يرجون من الله النصر على أعدائهم من الكافرين- أعظم وأظهر.

وها هو ذا النصر يحفهم وهم يكتنفون راحلة رسول ﷺ وهو صلوات الله عليه فوقها متذللا لله، متواضعًا لعظمته، واضعًا رأسه تخشعًا وعرفانًا بحق شكر الله تعالى على ما أسداه إليه من نعمة الفتح العظمى.

ذكر محمد بن إسحاق عن شيخه عبدالله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجرًا بشقة برد حبرة حمراء، وأن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعًا لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن

عثنونه- أي لحيته- ليكاد يمس واسطة الرحل. وفي حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- عند البيهقي قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح، وذقنه على رحله متخشعًا. وفي حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- عند البيهقي أيضًا عن شيخه أبي عبد الله الحاكم قال: إن رجلًا كلم رسول الله ﷺ يوم الفتح فأخذته الرعدة، فقال له ﷺ: «هون عليك، فإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد».

وكان من أعظم مواقف الشكر لله تعالى في هذا المقام الحافل بالنعم، ونفحات العطايا الربانية موقفه ﷺ في الامتنان بإطلاق بقايا سيوف المسلمين من مشركي قريش الذين استبقاهم الهرب فرارًا منهزمين أمام كتائب المجاهدين في سوابق الغزوات، بعد أن صاروا أسارى في يده ﷺ وأيدي أصحابه، وهم يظنون كل الظن أنهم سيؤخذون بذنوبهم وجرائرهم، وقد نشف الدم في عروقهم، وتيبست أعصابهم، واصفرت جلودهم من شدة ما كانوا فيه من الخوف الهالع، والرعب المفزع خشية أن يقضي فيهم رسول الله ﷺ بما يستحقونه قضاء يقضي عليهم، أو يسمهم بميسم الذل الأبدي والهوان السرمدي، فيجعلهم عبيدًا وخولًا، يتقاسمهم جند الجهاد الفاتحين، لكنه ﷺ رحمهم ورق لهم، ووقف منهم جميعًا إلا ما استثنى موقف الشكر لله لتزلفهم، وهو ﷺ يقول لهم: «ماذا تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم،

وقـد قـدرت، فقال ﷺ «إني أقول لكم كما قال أخي يوسـف: لا تثريـب عليكم اليـوم، يغفر الله لكم وهو أرحـم الراحمين» «اذهبوا فأنتم الطلقاء» فخرجوا من المسـجد سـراعًا، وكأنهم أشباح فارقتها أرواحها إلى بيوتهم أو كأنما نشروا من القبور.

هـذا موقف من مواقـف العفو الكريم والصفـح الجميل لم يعرفـه التاريـخ، ولا عـرف مثله فـي النبل والإحسـان ومكارم الأخـلاق، وقفـه رسـول الله ﷺ مع من أسـاءوا إليـه، وكذبوه وسـخروا منـه، وآذوه بالقـول والفعل حتى أخرجـوه من بلده المحرم الآمن مهاجرًا في سبيل أداء رسالته ونشر هداها، وآذوا أصحابه وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وعشائرهم.

وإذا انضـم إلـى هذا الموقف النبيل الأكـرم مواقفه ﷺ من أفـراد دانت لهم قريش بزعامتها، وكان الشـيطان قد اتخذهم مطايـا لخبائثه وجرائره، فهمَّ بعضُهـم بقاصمة القواصم، مثل أبي سـفيان بن حرب الذي آمن ثم كفر، ثم آمن، ثم ازداد كفرا إذ يوحـي إليه الشـيطان وهو آخذ بمقوده أكثـر من مرة بعد أن أمن، وأمن معه ولأجله قومه، أن يجمع لمقاتلة رسـول الله ﷺ ويأتـي الخيـر بما حدث به نفسـه مـن نقض الأمـان، فيخبره النبـي ﷺ بما حدث به نفسـه، وقـال لـه: «إذن يخزيك الله» فيعفو عنه رسول الله ﷺ ويتركه، فلا يؤاخذه شكرًا لله تعالى.

وروى ابن سـعد عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم أن رسـول الله ﷺ خـرج مـن الكعبـة وأبوسـفيان بـن حـرب جالس في

المسجد، فقال أبوسفيان في نفسه: ما أدري بم يغلبنا محمد؟ فأتاه ﷺ فضرب صدره، وقال: «بالله نغلبك» فقال أبوسفيان: أشهد أنك رسول الله وروى الحاكم وتلميذه البيهقي عن ابن عباس، وابن سعد عن أبي إسحاق السبيعي، قالوا: رأى أبوسفيان رسول الله ﷺ يمشي والناس يطئون على عقبه، فقال: لو عاودت هذا الرجل القتال؟ وجمعت له جمعًا، فجاء رسول الله ﷺ حتى ضرب في صدره، فقال: «إذن يخزيك الله» فقال أبوسفيان: أتوب إلى الله، وأستغفره، ما أيقنت أنك نبي إلا الساعة، إني كنت لأحدث نفسي بذلك.

قصة فضالة بن الملوح وهمه برسول الله ليغدر به وفضح الله له

وذكر ابن هشام والقسطلاني في مواهبه وابن كثير في بدايته وابن عبد البر في درره أن فضالة بن عمير بن الملوح هَمَّ بقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال له ﷺ «أفضالة؟» قال: نعم، فضالة يا رسول الله، قال له النبي ﷺ «ماذا كنت تحدث به نفسك؟» قال: لا شيء كنت أذكر الله، فضحك ﷺ ثم قال له: «استغفر الله مما حدثت به نفسك» ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئًا أحب إلي منه.

وقصة صفوان بن أمية بن خلف، وعكرمة بن أبي جهل معروفة، وهربهما خوفًا على نفسيهما منه ﷺ لما اقترفاه، ولا سيما يوم الفتح إذ وشبوا أوشابًا من قريش وأتباعهم[١٣]، وقاتلوا جنود الفتح فقتل منهم خالد بن الوليد مقتلة عظيمة، ومع ذلك فقد أرسل إليهما رسول الله ﷺ مؤمنًا لهما، فجاءا فأسلم عكرمة مكانه، واستأجل صفوان إسلامه شهرين، فأعطاه ﷺ أربعة أشهر.

وفي حديث عائشة -رضي الله عنها من طريق عروة عند ابن إسحاق قالت: خرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها

---

(١٣) الأوشاب: الأخلاط. (المجلة)

إلى اليمن، فقال عمير بن وهب: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه، وقد خرج هاربًا منك ليقذف نفسه في البحر، فأمنه يا رسول الله صلى الله عليك، فقال ﷺ «هو آمن» فقال عمير: يا رسول الله فأعطني آية يعرف بها أمانك، فأعطاه ﷺ عمامته التي دخل بها مكة، فخرج عمير بها حتى أدركه وهو يريد أن يركب في البحر، فقال عمير: يا صفوان فداك أبي وأمي، الله الله في نفسك أن تهلكها، هذا أمان من رسول الله ﷺ وقد جئتك به، قال صفوان: ويلك اغرب عني فلا تكلمني، قال عمير: فداك أبي وأمي، هو أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، ابن عمك، عزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك، قال صفوان: إني أخافه على نفسي، قال عمير: هو أحلم من ذلك وأكرم، فرجع صفوان مع عمير حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك أمنتني، قال ﷺ «صدق» قال صفوان: فاجعلني بالخيار فيه شهرين، فقال ﷺ «أنت بالخيار أربعة أشهر».

قصة عتاب بن أسيد
والحارث بن هشام وأبي سفيان

وقصة أبي سفيان، وعتاب بن أسيد، وأخيه خالد بن أسيد، والحارث ابن هشام، وهم جلوس بفناء الكعبة إذ حانت صلاة الظهر، فأمر رسول الله ﷺ بلالًا أن يؤذن فوق الكعبة، فقال عتاب وخالد بن أسيد: لقد أكرم الله أسيدًا أن لا يسمع هذا فيغيظه، وقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته، إن يكن الله يكره هذا فسيغيره، وقال أبو سفيان: لو تكلمَتْ لأخبرتْ عني هذه الحصى، فخرج عليهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «قد علمت الذي قلتم» وأخبرهم بقول كل واحد منهم، فأسلم الحارث وعتاب، وقالا: نشهد أنك رسول الله، ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك، وقبل ﷺ إسلام من أسلم، ولم يؤاخذ من تأخر بإسلامه.

وهكذا كان رسول الله ﷺ في قمة الشكر، عفوًا كريمًا، صفوحًا محسنًا، حكيمًا، صبورًا، رءوفًا، رحيمًا، جامعًا لمكارم الأخلاق وأحسن محاسن الشيم كما وصفه الله تعالى بقوله:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤)

قصة ضن الأنصار برسول الله ﷺ أن يفارقهم إلى غيرهم

ذكر ابن هشام عن مرسل يحيى بن سعيد أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة، وظهرت عليه مظاهر الأنس بمشاعرها ومتعبداتها، أُنْسَ المشوق إلى حبيب غاب عنه ثم عاد إليه، تخوَّف الأنصار أن يكون هذا الأنس بمواقف العبودية في مشاعرها رغبة عند رسول الله ﷺ في إقامته بمكة، بلده، وأنس قلبه وفيها عشيرته وقومه الأدنون، فقال بعضهم لبعض: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها أم يرجع إلينا؟

وإنما قال الأنصار ذلك حبًا في رسول الله ﷺ وضنا به أن تكون إقامته بينهم سرمدية لا يفارقهم، ولا يفارقونه، تعلقًا به ﷺ وحرصًا عليه أن يظل موضع اختصاصهم به في الإقامة بينهم لا يشاركهم فيه غيرهم.

وقد حفزهم على هذا الظن ما رأوه منه ﷺ من مزيد الأنس بالمشاعر والشوق إلى مطالعة أسرار العبودية في مجاليها، بكثرة ذكر الله تعالى والدعاء المتضرع في ظل نسمات جودها، استنزالًا لرحمات الله في معالمها، وكان ﷺ حين قال الأنصار ذلك قد علا من الصفا حتى يرى البيت، فرفع يديه، وجعل يحمد الله ويذكره ويدعو بما شاء الله أن يدعو، متضرعًا متخشعًا، والأنصار تحته في سفح الصفا.

فلمـا فـرغ ﷺ من دعائه أخبـره الوحي بما قالـوا رأفة بهم ليمسـح عـن أفئدتهم ما مسـها من شـعور الألـم والحزن على مفارقـة رسـول الله ﷺ وحظوة غيرهم بقربه، وعيشـه بينهم، فالتفت إليهم ﷺ وقال لهم: «ماذا قلتم؟»

قالوا- اسـتحياء من مواجهته ﷺ بما هجس في خواطرهم حياله، وحرصًا على وجوده بينهم- : لا شيء، فلم يزل يتلطف بهم حتى أخبروه بما قالوا، فقال ﷺ ليطمئن أفئدتهم الوالهة، ويثلج صدورهم بإخباره أنه باق لهم، وسـيعيش بينهم: «معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم».

قال الزرقاني: وهذا المرسل صح بأتم منه في مسلم وأحمد وغيرهمـا عـن أبـي هريرة -رضـي الله عنه- أنـه ﷺ لما فرغ مـن طوافه أتى الصفا، فَعَـلا منه حتى يرى البيـت، فرفع يديه وجعل يحمد الله تعالى ويذكره، ويدعو بما شـاء الله أن يدعو، والأنصـار تحته، فقال بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته.

قـال أبوهريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء لا يخفى علينا، فليـس أحد من النـاس يرفع طرفه إليه، فلمـا قضى الوحي قال رسـول الله ﷺ «يا معشـر الأنصار» قالوا: لبيك يا رسـول الله، قـال صلـوات الله عليـه: «قلتم أمـا الرجـل فأدركتـه رغبة في قريته، ورأفة بعشـيرته» قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، قال ﷺ «فمـا اسـمي إذن؟ كلا، إني عبدالله ورسـوله، هاجرت إلى الله

وإليكـم، المحيـا محياكـم والممـات مماتكم» فأقبلـوا إليه يبكون، ويقولون: والله يا رسـول الله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله وبرسـوله، فقـال لهم ﷺ: «فـإن الله ورسـوله يعذرانكم ويصدقانكم».

وقـول هذه الروايـة التي صححها الزرقانـي، وهي كما قال من رواية مسـلم في صحيحه وأحمد في مسـنده، وغيرهما من الرواة عن الأنصار أنهم قالوا: أما الرجل- يعنون سيد المرسلين وخاتـم النبييـن محمدًا ﷺ فقد أدركته رغبة فـي قريته، ورأفة بعشيرته- أسلوب لا يستقيم مع ما عرف عن الأنصار من رفيع الأدب النفسي، والأدب التعبيري، خاصة مع رسول الله ﷺ في وصفه، والتحدث إليه ومخاطبته.

ولهـذا قـال لهم صلـوات الله عليه بعـد أن أخبرهـم بأنهم قالـوا هذا القـول، واعترفوا- كما تقول الروايـة- وقالوا، قلنا يا رسول الله: «فما اسمي إذن؟ كلا، إني عبدالله ورسوله» وهذا اسـتفهام إنكاري مؤيد بحرف الزجر «كلا» يُقصد به أن قولهم عـن رسـول الله (أما الرجـل) لا يوائم ما عرف عنهم من شـدة حبهم له ﷺ، وتوقيره وتعظيمه أخذا بما أدب الله به المؤمنين من رفيع الأدب في التحدث عن رسـول الله ﷺ، والأنصار خير المؤمنين بعد السابقين من المهاجرين.

وذكـر هذا الاسـتفهام، واتباعه بحـرف الزجر (كلا) دون ذكر جواب عنه يحتمل أن يكون بعضهم أجاب عن الاستفهام،

فذكر اسم رسول الله ﷺ الذي كان ينادي به قبل بعثته (محمد بن عبدالله) فرد بقوله: (كلا) ومعناه الزجر أن يكون هذا هو اسمه بعد رسالته في كل ما يتحدث به عنه مما يدخل في إطار رسالته، وإنما اسمه الذي يجب أن يتحدث به عنه في مقام رسالته: أنه عبد الله ورسوله.

ثم أخبرهم عن خصيصة اسمه بعد الرسالة بأنه هو الذي جمعه ﷺ بهم، ولأجله هاجر إلى الله وإليهم، تاركًا أرضه إلى أرضهم وبلده إلى بلدهم، وعشيرته إلى الحياة بينهم، فآووه ونصروه على من كذبه وأخرجه من بلده، وحاربه، ووقف أمام رسالته معوقًا مسيرتها إلى الآفاق، فحاربوا أعداءه وأعداء رسالته، وكانوا جيش الفتح الأعظم بعد أن كانوا كتائب النصر المؤزر.

ويحتمل أسلوب الكلام أنهم سكتوا، فلم يجيبوا عن استفهامه ﷺ استحياء منه لما رأوا من إنكاره عليهم أن يقولوا عنه: (أما الرجل)، ويرشح ذلك أنه ﷺ أتبع استفهامه بحرف الزجر فيكون الإنكار المفهوم من الاستفهام منصبًا على قولهم: (أما الرجل)، أي لا ينبغي لكم في شرعة رفيع الأدب التحدث عن نبيكم ورسولكم أن تقولوا عنه: (أما الرجل) وهو اسم يعم على الأولين والآخرين من الناس.

ولهذا قال صلوات الله عليه معلمًا ومؤدبًا: (كلا، إني عبدالله ورسوله) ثم بين لهم أن هذا الاسم الخاص بالرسالة

هـو الذي هاجر به إلى الله وإليهم، فهو العروة الإيمانية الوثقى بينـي وبينكم خاصة، وبيني وبيـن المؤمنين عامة، ثم رحمهم بعد هذا الدرس التربوي، فأقر أعينهم بأنه لن يفارقهم، فمحياه محياهم، ومماته مماتهم، وأرضهم أرضه، وبلدهم بلده، وهي مثـواه الأبدي، يحيا فيه معهم، وإذا فارقهم إلى الرفيق الأعلى، فحياته البرزخية فيها حتى يبعث الله العالمين للجزاء.

وفي هذا الإخبار من البشـرى لهم ما أثلج صدورهم، واقتلع جـذور الظنون والأوهـام من أفئدتهم، وملأها بالسـكينة وبرد اليقين، وهذا التأويل أقرب مناسبة لمعاني الروايات.

وقد أشـار الزرقاني إلى ما يمكن الجمـع به بين الروايتين، ولكنـه لـم يأثره، وإنما ذكـره احتمالاً فقـال: وكأن ذلك وقع لطائفتين، فبادر النبي ﷺ بإخبار إحداهما، فقال لهم: «قلتم» لجزمهـا بالقـول، وتلطف بالأخرى لكونها لـم تجزم، فقالت أتـرون رسـول الله ﷺ إذ فتح الله عليـه مكة بلده يقيـم بها أم يرجع إلينا.

ومعنـى كلام الزرقاني أن الأنصـار -رضي الله عنهم لما رأوا مظاهر الأنس ووله الشوق تغمر مشاعر رسول الله، ورأوا إشراق الغبطة وبارقات السرور بفضل الله عليه وعلى جميع أمته تبرق أسـاريره داخلهم الظن، وحرصًا على رسـول الله ﷺ، وضنًا به أن يشـركهم غيرهـم فيما خصوا به من إقامتـه بينهم - أفضى بعضهم إلى بعض بما دار في أخلادهم، وكان المتحدثون منهم

طائفتيــن، فطائفة قال بعضهــا لبعض: أما الرجــل فقد أدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته.

ولعـل هذه الطائفة ممن جمح بها الحرص على بقاء رســول الله ﷺ بينهــم، والضــن بــه أن يفارقهم إلى غيرهــم، فتفوهوا بهــذه الكلمة (أما الرجل) فــي ضمن ما قالوه، ولم يكونوا من ذوي القدمة في الإسلام، الراسخين في ضبط ألسنتهم المعبرة عما في أنفسهم من الحرص على رسول الله ﷺ والحب والشح به أن يشاركهم فيه غيرهم.

ولهــذا كان خطابه صلوات الله عليه مــع هذه الطائفة جازمًا حاســمًا، فقــال لهم: قلتم أمــا الرجل فأدركته رغبــة في بلده، ورأفة على عشــيرته، فقالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، فأخذ ﷺ يذكرهــم بما كان ينبغي عليهم مــن وزن الكلمات المعبرة عن خوالجهم لأنهم أســوة يتأســى بهــم غيرهم، فقــال لهم: «فما اســمي إذن، إني عبد الله ورســوله» فأقبلوا إليه يبكون، يقولون معتذريــن عمــا انزلقت به ألســنتهم: والله يا رســول الله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله ورســوله، فقــال صلوات الله عليه: «إن الله تعالى ورسوله يعذرانكم ويصدقانكم».

أما الطائفة الثانية الذين قالوا ظنًا: أترون أن رســول الله ﷺ إذ فتــح الله عليه أرضــه وبلده يقيم أم يرجع إلينا؟ فهؤلاء كانوا من الراســخين الذين اســتلجموا ألســنتهم بحكمات اليقين، واعتصمــوا برفيــع الأدب فــي التحــدث عــن رســول الله ﷺ،

فأبرزوا ما دار في دخائل أفئدتهم المفعمة بحب رسول الله ﷺ الضنينة به أن يفارقهم إلى غيرهم.

أولًا – بأسلوب الاستفهام، كأن كل واحد منهم يقول لأصحابه: هل عندكم من علم بما عند رسول الله ﷺ، من عزيمة، هل يقيم ببلده بين قومه وعشيرته بعد أن فتح الله عليه مكة، أو يرجع إلينا؟

ولا شك أن هذه الظنون تثيرها لهفة الحب، ولكنهم لم يجزموا؛ لأنه لم تبد لهم بادرة قولية أو فعلية تدل على ما عزم عليه رسول الله ﷺ.

وثانيًا – أنهم أبرزوا دخائل أنفسهم بأسلوب الظن ولم يجزموا بشيء، في أسلوب من الأدب الرفيع الذي أدب به المؤمنون، فقالوا: أترون أن رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها أم يرجع إلينا؟

ولهذا تلطف ﷺ مع هؤلاء، فلم يقل لهم كما قال للطائفة الأولى: (قلتم أما الرجل) وهذا لحسن تصرفهم وجمال تعبيرهم عن خوالجهم، فقال لهم: (ماذا قلتم؟) فلم يخبرهم بما قالوا بأسلوب الجزم، وهو قد أعلم عن طريق الوحي بما قالوا.

وفي استفهامه ﷺ منهم عما قالوا وهو به عليم زيادة في التلطف بهم ليكون في ذلك درس تربوي، لاسيما للذين قالوا:

أما الرجل ليعلمهم عن طريق أخوتهم أدب التعبير في التحدث عنه ﷺ .

ولهذا نفى الراسخون في ردهم على رسول الله ﷺ إذ قال لهم «ماذا قلتم»، فقالوا: لا شيء، أي لم نقل شيئًا جزمنا به واعتقدناه في قلوبنا، ولكنا ظننا ظنًا عبرنا عنه بما علمته يا رسول الله، رجاء أن يرحمنا الله ببقائك معنا حتى لا نرجع إلى ديارنا إلا ورسول الله ﷺ إمامنا وقائدنا محاطًا بحبنا وتعظيمنا لمقامه المنيف، وتطمئن قلوبنا ونعلم أنا صدقنا ما عاهدنا الله عليه من الحب لله ولرسوله ﷺ .

التوسع في تحليل كلام الزرقاني

ونحن نشعر أنا توسعنا قليلًا في بيان معنى كلام الزرقاني لندفع به إشكال الاختلاف بين الطائفتين اللتين فرض الزرقاني أن الكلام كان منهما، واختلف لاختلافه رد رسول الله ﷺ عليهما، مع التماس العذر للذين جمحت بهم العبارة، فقالوا: «أما الرجل» مدفوعين بحماسة الحب لرسول الله ﷺ والضن به أن يرجعوا إلى دارهم وليس فيهم صلوات الله عليه.

وإن كان الزرقاني ذكر هذا الكلام ليدفع به إشكال اختلاف الروايتين في كلام الطائفتين ورد رسول الله ﷺ قال لهم: «قلتم أما الرجل» مخبرًا لهم بما قالوا بأسلوب الجزم فأقروا بما قالوا واعتذروا، وجاءوه يبكون، فعذرهم وصدقهم، والتزموا ما ألزمهم الله من الأدب الرفيع تعظيمًا له ﷺ .

ورواية قالت إنه ﷺ سألهم: «ماذا قلتم؟» فاستحيوا منه ﷺ أن يصارحوه بما قالوا، فلم يزل يتلطف بهم حتى اعترفوا بما قالوا.

فأراد الزرقاني أن يجمع بين هذين الاختلافين في كلام الأنصار، وأن يوفق بين كلام رسول الله ﷺ في رده عليهم حسبما جاء في الروايتين، فذكر ما ظهر له من احتمال أن الكلام والرد عليه وقع من الطائفتين على نهج ما ذكرناه.

وقد رأينا أن ما ذكره الزرقاني احتمالًا هو الأقرب للجمع بين الاختلافين، وهو أسلم من رد الروايات عند الاختلاف، وأنه كلام حسن؛ لأنه إذ يدفع اختلاف الروايتين يدفع أيضًا ما جاء في إحداهما من إشكال في التعبير يجافي الواجب في ملاحظة رفيع الأدب عند التحدث عن رسول الله ﷺ، ويخرجه أن يكون صدر من الأنصار كلهم، وذلك في قول إحدى الطائفتين، بعضهم لبعض: «أما الرجل فأدركته رغبة في بلده» فسيَّرناه إلى هذا الإِشكال لندفعه به، وهذا من قبيل التوسع في معنى الكلام ومده إلى أن يزيل إشكال الروايات في طرف آخر غير طرفه الذي سبق له، ولعل هذا الحديث دخله ما يدخل رواية الحديث بالمعنى من قصور في التعبير، والعلم عند الله.

مقابلة الإحسان إلى أهل مكة بأسوأ الغدر من الموتورين فأخزاهم الله

دخلت كتائب المجاهدين مكة يوم الفتح الأعظم، يقدمهم قادتهم، وحاملو ألويتهم وراياتهم من حيث أمرهم رسول الله ﷺ، وركزت راية رسول الله التي كان يحملها الزبير بن العوام بالحجون بأمره حيث نزل رسول الله ﷺ في قبة ضربت له، وأبى لحكمة سياسية أن ينزل في منزله الذي كان له قبل أن يهاجر لأن عقيل بن أبي طالب باعه فيما باع، كما أبى ﷺ أن ينزل في بيت أحد، وقال: «لا أنزل في البيوت» ثم انتقل إلي خيف بني كنانة، حيث تقاسم سدنة الكفر وأحلاس الوثنية على أظلم حلف تحالفوه ضد بني هاشم والمطلب.

وقد حاول بعض بقايا الموتورين من قريش أن يقاتلوا كتائب الجهاد وهم داخلون حيث يفاجئونهم في طرقات مكة التي تجمع فيها أوشابهم ومن تبعهم من القبائل، وقالوا: نقدم هؤلاء فإن كان لهم شيء كنا معهم وإن لم يكن معهم أجبنا محمدًا - إلى ما يطلبه منا، وكان أول من قاتلوه من الكتائب كتيبة بني سليم، وقائدها خالد بن الوليد، فكف عنهم يده استجابة لأمر رسول الله ﷺ أن لا يقاتل قواد الكتائب إلا إذا

قوتلـوا ليكونـوا مدافعين، ولكن الموتوريـن من زعماء قريش طمعوا فـي غير مطمع، فقاتلوا خالدًا وقتلـوا من رجاله رجلًا، فقاتلهم خالد، وضربهم ضربة حاسمة، بددت جمعهم وشتت شملهم وفرقت جموعهم.

ولما فرغت كتائب الجهاد من هذه المناوشات التي لم تكن تغني عن قريش شـيئًا راجعوا أنفسهم، وطلبوا تجديد الأمان، فجدده لهم رسول الله ﷺ، وأسرعوا إلى بيوتهم يغلقون أبوابها عليهم، وطرحوا أسلحتهم في الطرقات فأخذها المجاهدون.

مظاهر فرحة المسلمين يوم دخولهم مكة فاتحين

وكان المجاهدون يوم دخولهم مكة مجهدين متعبين من طول ما قطعوا من الأرض مسافرين صائمين قبل أن يرخص لهم في الفطر، يحملون أثقالهم الحربية، فكانوا في أشد الحاجة إلى الراحة، فاتخذوا من يوم دخولهم مكة فاتحين يوم فرحة وراحة، فانطلقوا بعد أن قضوا على ما صادفهم من المناوشات في طرقات مكة ومشاعرها ومعالمها، يهللون ويكبرون ويحمدون الله على عظيم فضله ويسبحونه شاكرين إنعامه على رسول الله ﷺ، وعلى أمته، يهنئ بعضهم بعضًا، ويكثرون من الطواف بالبيت المشرف تعبدًا لله تعالى، وشوقًا إلى هذه المعالم التعبدية والمشاعر الإيمانية التي فارقوها ملجئين.

روى البيهقي عن سعيد بن المسيب قال: لما كان ليلة دخل الناس مكة، ليلة الفتح، لم يزالوا في تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا.

وكأنهم -رضي الله عنهم- جعلوا يوم دخولهم البلد الحرام لراحتهم وفرحتهم، فوسع لهم النبي ﷺ، وكان معهم سمحًا كريمًا، مقدرًا لما عانوه في سفرهم الطويل الشاق المضني، وهم صائمون في بعض أيام سيرهم، يحملون على كواهلهم ومراكبهم أثقال أهبتهم، وعدة الحرب لمن حاربهم، وأداة

قتال من قاتلهم، فتركهم حتى يأخذوا شيئًا من راحة أبدانهم.

فلما أصبحوا من الغدر رآهم ﷺ قد استجموا وأخذوا من الراحة قسطًا أعاد إليهم أنفاسهم هادئة ونفوسهم مطمئنة، وكان ﷺ قد قضى يومه وليلته في تطهير البيت من أرجاس الوثنية، فلم يزل بالأصنام تكسيرًا حتى قضى عليها، ثم دخل البيت فمكث فيه نهارًا طويلًا، وتجمع أصحابه ينتظرون خروجه فخرج إليهم، وكان قد انضم إليهم من انضوى لجمعهم ممن آمن من قريش(١٤)، بعد أن اطمأنوا إلى تجديد أمان رسول الله ﷺ إثر صرخة فزع من أبي سفيان بن حرب، وهو يرى موقف خالد بن الوليد من أوباش قريش: لقد أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم.

ووقف ﷺ على درج البيت خطيبًا في الناس، فخطبهم خطبة شاملة جامعة لكثير من الأحكام التشريعية، والحكم الاجتماعية، والآداب الخلقية، والمواعظ التربوية، فقال ﷺ:

(١٤) انضوى: انضم. (المجلة)

خطبة رسول الله ﷺ
يوم الفتح الأعظم

بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا تحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، أو يعضد بها شجرًا، فإن أحد ترخص فيها بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله ﷺ، ولم يأذن لكم، وإنما أُحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها الآن كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب».

ثم التفت ﷺ إلى جموع قريش فقال لهم: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيرًا أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت، فقال ﷺ: «فإني أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

موقف شجاع من مواقف أبطال الصحابة رضي الله عنهم

وقد أخرج البخاري حديث الخطبة العظيمة عن أبي شريح الخزاعي -رضي الله عنه - واسمه خويلد بن عمرو، وقيل غير ذلك - في موقف من مواقف الجهر بكلمة الحق بين أيدي الظلمة السفاكين، قال البخاري رحمه الله: حدثنا سعيد بن شرحبيل، حدثنا الليث عن المقبري، عن أبي شريح الخزاعي أنه قال لعمرو بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة - أي لقتال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: ائذن لي أيها الأمير، أحدثك قولًا، قام به رسول الله ﷺ الغد من فتح مكة، سمعَتْه أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به، أنه حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد شجرًا، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله تعالى أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب». قال عمرو بن سعيد لأبي شريح رضي الله عنه: انصرف أيها الشيخ، فنحن أعلم بحرمتها منك، إنها لا تمنع سافك دم، ولا مانع طاعة، ولا مانع جزية، فقال أبو شريح رضي الله عنه: إني كنت شاهدًا وكنت غائبًا،

وقـد أمرنا رسـول الله ﷺ أن يبلغ شـاهدنا غائبنا وقد بلغتك، فأنت وشأنك.

وموقـف أبـي شـريح رضي الله عنـه هذا من مواقف رسـوخ الإيمـان، وصلابـة اليقيـن الذي يشـهد فيـه أصفيـاء الإيمان مجريـات القدر في كتب غيب الله، ويـرون فيه بنور بصائرهم وإشـراق أرواحهم أن ليس أحد من الخلق بمغن عن أحد من الله شيئًا، وهو موقف من مواقف الجهاد في محاربة الباطل، ونصرة الحـق، والجهر بكلمة الحق بين أيدي الظالمين، يصكون بها أسماعهم على سـمع جلاوزتهم وهم مصلتو سـيوفهم انتظارًا لخائنة الأعين من الطغاة الفجرة، لإخلاء أعناق ناصري الحق، الصارخين بكلمته من رءوسهم.

فما أحوج الإسـلام والمسلمين في هذه الأيام إلى أمثال أبي شـريح رضي الله عنـه صراحة في أدب وحكمـة، فهو رضي الله عنـه لم يهجم هجوم الحمقى، ولكنه تلطف بعمرو بن سـعيد الأشـدق - لطيم الشـيطان، وأحـد جبابرة دولـة المروانيين، ومسـعري نيـران الفتن الجائحـة المدمرة في صدر الإسـلام - فاسـتأذنه أن يبلغه قولًا، سمعه من النبي ﷺ سماعًا مؤكدًا، لا يمتـري في كلمة منه، وأبلغه أن النبي أمر الشـاهدين لأمره من أصحابه أن يبلغوا الغائبين ما سمعوه جيلًا بعد جيل.

ولما لج عمرو بن سعيد في عناد الضلال، وطغيان الفجور، وادعى أنه أعلم من أبي شريح بما حدثه به عن رسول الله ﷺ لم

يسكت أبو شريح رضي الله عنه على هذا الضلال الجهول، بل قال لعمرو بن سعيد: وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن يبلغ شاهدنا غائبنا، ثم تابع أبو شريح رضي الله عنه كلامه بلون من الوعيد المبطن بالنصح، فقال لعمرو بن سعيد: وكنت شاهدًا وكنت غائبًا، وقد بلغتك فأنت وشأنك.

نص آخر لخطبة النبي ﷺ يوم الفتح

وقد أخرج البخاري أيضًا حديث خطبة الفتح من مرسل مجاهد فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة، لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، ولم تحلل إلا ساعة من الدهر، لا ينفر صيدها، ولا يعضد شوكها، ولا يُخْتَلى خلاؤها، لا تحل لقطتها إلا لمنشد» فقال العباس بن عبد المطلب: إلا الإذخر يا رسول الله، فإنه لابد منه للدفن والبيوت، فسكت رسول الله ﷺ ، ثم قال: «إلا الإذخر، فإنه حلال».

غلط ابن إسحاق في تسمية من كان معه موقف أبي شريح

وفي هــذه الرواية اختصار من جانب وزيادات من جانب آخــر ، وقــد ذكر ابن إســحاق حديث أبي شــريح في خطبة الفتح ، وغلط ابن إســحاق في تســمية من بلغه أبو شــريح حديــث الخطبة عن النبي ﷺ ، فســماه عمرو بــن الزبير ، فقال : وحدثني سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي شريح الخزاعــي ، قال : لما قدم عمرو بــن الزبير مكة لقتال أخيه عبد الله بن الزبير جئته ، فقلت له : يا هذا ، إنا كنا مع رسول الله ﷺ حين افتتح مكة ، فلما كان الغد من يوم الفتح عدت خزاعة على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك ، فقام رسول الله ﷺ فينــا خطيبًا فقــال : «أيها النــاس ، إن الله حرم مكة يــوم خلق الســموات والأرض ، فهي حرام مــن حرام الله إلى يــوم القيامــة ؛ فلا يحل لامــرئ يؤمن بالله واليــوم الآخر أن يســفك فيهــا دمًا ، ولا يعضد بها شــجرًا ، [إنهــا] لم تحل لأحــد كان قبلــي ، ولا تحــل لأحد يكون بعــدي ، ولم تحل إلا هذه الســاعة ، غضبًا على أهلها ، ألا ثم رجعت كحرمتها بالأمــس ، فليبلغ الشــاهد منكــم الغائب ، فمــن قال لكم : إن رســول الله ﷺ قــد قاتل فيها ، فقولــوا : إن الله قد أحلها

لرسوله ولم يحلها لكم».

ومع ما في سياق ابن إسحاق من المخالفة لسياق غيره في نص ما ذكروه من الخطبة فقد وهم ابن إسحاق فجعل عمرو بن سعيد بن العاصي الأشدق – وكان يسمى لطيم الشيطان، وكان كما يقول السهيلي جبارًا شديد البأس – عمرو بن الزبير، وقد خالف ابن إسحاق جميع من ساقوا حديث أبي شريح في هذا الوهم.

وقد ساق ابن إسحق خطبة الفتح في موضع آخر بسند آخر وفيما ساقه زيادات مفيدة اتفق في بعضها مع غيره من رواة الحديث والمغازي، ونحن نسوق هذا النص لما فيه من هذه الزيادات لما فيها من الفائدة.

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور، عن صفية بنت شيبة، أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعًا على راحلته، يستلم الركن بمحجنه في يده(١٥)، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده، ثم طرحها، ثم وقف على باب

(١٥) المحجن: عصا معوجة. (المجلة)

الكعبة وقد استُكِفّ له الناس في المسجد[١٦]، وزاد موسى بن عقبة أنه ﷺ انصـرف إلى زمزم فاطلع فيها، ودعا بماء فشرب منه وتوضأ، والناس يبتدرون وضوءه، والمشركون يتعجبون من ذلك، ويقولون: ما رأينا ملكًا قط، ولا سمعنا بـه مثل هذا، وأخر رسـول الله ﷺ المقام إلـى مكانه الذي عليه اليوم، وكان من قبل مُلصقًا بالبيت.

(١٦) استكفَّ: جمع الكافة. (المجلة)

نص لخطبة الفتح أوفى وأبسط يسوقه ابن إسحاق

ثم ساق ابن إسحاق نصًا من نصوص الخطبة، فقال: فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ وقف على باب الكعبة فقال: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدعى فهو موضوع تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد، بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلظة، مئة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها».

«يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب» ثم تلا ﷺ هذه الآية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ (الحجرات: ١٣)

«يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم»، قال ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومفتاح الكعبة في يده ﷺ، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة» فدُعي له، فقال ﷺ: «هاك مفتاحك يا عثمان» اليوم يوم بر ووفاء».

مجمل إطار البحث في غزوة الفتح

فـي هذا الإِطـار أجرينا الحديث في ذكر معالـم هذه الغزوة المباركـة، غـزوة الفتح الأعظـم، فتح مكة، بلـد الله المحرم، وبلد رسوله ﷺ الذي اختاره الله مهدًا لمولده، ومرتعًا لنشأته، ومتقلبًا لشـبابه، ومراحًا ومغدى لرجوليته، ومهبطًا لرسالته، ومتنـزلًا لبعثته، وغرس في قلبه حبه لها، فقال فيها وهو واقف في الحزورة: «أما إنك أحب بلاد الله إلى الله، وأحب البلاد إليّ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت».

وقـد بينا أن النبي ﷺ أعـد لفتحها جيشًـا عرمرمًا كثيفًا، كامـل الأهبة وافي العدة بالسـلاح والكـراع والمؤن، وأدوات الحـرب والقتـال، بيد أنـه ﷺ كان يتفادى القتـال فيها وفي المسـير إليهـا، ويتخذ مـن الرحمة بأهلها دروعًـا تقيهم بأس الغـزاة، فتلطف بهم غاية التلطف أفـرادًا وجماعات، وأدناهم من نفسـه، وقابل من أساء وطغى وبغى منهم بأعظم الإِحسان، وعفـا عما سـلف منهم ومـن آبائهـم، ولكن أحقـاد الجاهلية البرصـاء كانـت لا تزال تملأ قلـوب الموتورين الذين وبشـوا الأوبـاش وجمعـوا الأتباع لقتـال كتائب الفتـح والجهاد وهي تدخل مكة آمنة مطمئنة، فأراهم الله فيما بيتوه من الغدر وخيانة الأمان الخزي والخذلان.

حملة تأديبية للغادرين ناقضي عهد الأمان

وكان رسول الله ﷺ قد أمر قواد كتائبه أن لا يقاتلوا إلا من بدأهم بالقتال، وأن يكفوا أيديهم ما استطاعوا، ولكن ذلك الإحسان أطمع الموتورين من زعماء قريش، فبدءوا بقتال كتيبة خالد بن الوليد رضي الله عنه، وقتلوا منها من قتلوا غدرًا وخيانة وكلبًا وضراوة، فقاتلهم خالد بن الوليد ليدفع عن نفسه وجنوده، فقتل منهم مقتلة عظيمة.

ولما رأى رسول الله ﷺ جموع الأوباش الذين وبشهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو أمر قواد كتائب الأنصار أن يحصدوا هؤلاء الأوباش حصدًا، تأديبًا لهم ولزعمائهم الذين جمعوهم ليريهم عواقب الغدر ونقض عهود الأمان التي كان ﷺ قد منحهم إياها على يد زعيمهم أبي سفيان بن حرب، ورفيقه حكيم بن حزام اللذين لم يكونا مع المحرضين على القتال.

ومضت حملة التأديب لتأخذ على الذين سعروا ويسعرون نيران الفتن طريقهم حتى استسلمت قريش بعد أن صرخ فيهم أبو سفيان وحكيم: يا معشر قريش، علام تقتلون أنفسكم؟ من دخل داره فهو آمن، وأسرعت أوباش قريش ومن كان يحرضهم على القتال إلى البيوت يدخلونها، ويغلقون أبوابها عليهم،

والرعب يملأ قلوبهم والفزع يلعب بأفئدتهم، ويهز كيانهم هزًا عنيفًا لا يتركهم يستقرون على شيء.

وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ولم يجدوا ملجأ يتنفسون فيه أنفاس الراحة إلا أن يلقوا بأيديهم مستسلمين في ضراعة إلى التوبة والندم بين يدي رسول الله ﷺ، فرقّ لهم ﷺ، وقبل منهم ضراعتهم، فأسلموا طائعين ومكرهين، فقبل إسلامهم، ولم يبحث عما في قلوبهم، بل عفا عنهم مستألفًا قلوبهم، حتى صلح حالهم أو حال أكثرهم بما بوأهم الله تعالى من ساحة الإيمان، وأحسن الله إليهم بفضله، فكانوا بعد ذلك قادة ذادة، وسادة رادة، وحملوا ألوية الفتح والجهاد، وحمل من بعدهم أبناؤهم وأحفادهم رايات الهداية الإسلامية، وأدربوا بها في آفاق الأرض برًا وبحرًا يدعون إلى الله(١٧)، ليحرروا الناس من ذل عبوديتهم للمخلوقين إلى عز عبوديتهم للخالق عز شأنه، وأخرجوا الحياة بمن فيها وما فيها من ظلمات الظلم والجهل إلى نور العدل والرحمة.

والمتأمل فيما كتبنا في إطار مراحل هذه الغزوة المباركة، غزوة الفتح الأعظم يدرك منحانا فيما أردنا من سوق بعض أحداثها، وأسبابها وآثارها، وأنها كانت غزوة بر ورحمة

---

(١٧) الدرب الطريق. وأدربوا بها في الآفاق أي ساروا بها في الآفاق. (المجلة)

ورأفة، ووفاء وعفو وصفح، وأنها كانت نسجًا لخيوط وحدة إيمانية أوسع وأعظم من الوحدة الإيمانية التي بدأت بمكة قبل الهجرة في دار الأرقم، ومن الوحدة التكافلية الاجتماعية التي عقدت عرواتها في المسجد النبوي، وهو يؤسس على الأخوة والتقوى، وفي دار أنس بن مالك بالمدينة المنورة، لأن وحدة الفتح بمكة كانت وحدة انطلاق بالهداية ونشر رسالة الإسلام في أوسع مدى من البلاد والأمم والشعوب، أما الوحدة الإيمانية قبل الهجرة، والوحدة التكافلية بعد الهجرة فهي وإن كانت أمتن نسجًا، وأفضل سردًا وأشرف منبعًا لكنها كانت أضيق حدودًا وأصلب عودًا، وأقوم سبيلًا، بل كانت عماد قوة المجتمع المسلم -أفرادًا وجماعات- الروحية، وكانت أساس حضارته الإيمانية التي حملها رواد الوحدة المكية بعد الفتح الأعظم، وبقوتها الروحية انتشرت الرسالة الإسلامية بمناهجها الأصيلة.

أسباب ما نالت غزوة الفتح الأعظم من عظيم المنزلة بين جميع الغزوات

وإنما كان لفتح مكة هذه المنزلة العليا، والمكانة الفضلى، والشهرة الداوية في أسماع التاريخ بين الغزوات التي سبقتها في قتال المشركين وقتال الوثنيين حتى سماها ابن القيم (الفتح الأعظم) لما اشتملت عليه من أمور دينية واجتماعية، وآداب تربوية نذكر منها ما قبسه الخاطر من نور مصابيحها:

أولًا - إن فتح مكة كان مفتاح الفتوحات الإسلامية التي تعاقبت بعده، فكان هذا الفتح جديرًا أن يكون بمنزلته العظمى التي عرفها له التاريخ عامة وتاريخ الإسلام خاصة.

ثانيًا - أن هذا الفتح حرر البلد الأمين من رق التعبد للأصنام والأوثان، وطهره من الشرك، وجعله متعبدًا توحيديًا لله الواحد الأحد.

ثالثًا - أن هذا الفتح جعل من البلد الحرام دار أمن وأمان، وسلامة وإسلام كما أرداها الله تعالى منذ خلقها يوم خلق السماوات والأرض.

رابعًا - أن هذا الفتح طهر الكعبة المشرفة من رجس الشرك، وجعلها قبلة يتجه إليها المسلمون بقلوبهم وأرواحهم وأبدانهم في صلواتهم، حيثما كانوا من أرض الله، فلا تقبل صلاة من مسلم - وهو متمكن من التوجه إليها - إلا إذا كان

موليًا وجهه وقلبه وروحه إليها بإخلاص في التعبد لله وحده، وفي ذلك جمع كلمة المسلمين، وتحقيق وحدتهم الإيمانية التي يكونون بها إخوة متحابين متراحمين مهما تناءت بهم الأوطان؛ لأن مشاعرهم موحدة، وإحساساتهم موحدة، وأهدافهم موحدة، وآمالهم موحدة، وآلامهم موحدة، كما قال رسول الله ﷺ وهو يصف حال المسلمين في وحدتهم الإيمانية: إنهم «كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر».

وبذلك يكون المجتمع المسلم موحدًا في كل ما ينتابه من الآمال والآلام، وتكون وسائل هذا المجتمع المسلم في حياته للوصول إلى غاياته سلمًا وحربًا موحدة في ظل بيئاتهم ووحدتهم.

خامسًا – هذا الفتح أعاد محمدًا رسول الله ﷺ إلى بلده آمنًا سيدًا منصورًا، سالمًا مشرّفًا بفضل الله عليه وعلى أمته، بعد أن أخرج منه مهاجرًا، لأنه لم يجد في بلده الأمين متنفسًا لدعوته، ولا مسالمة له ولأصحابه، وسدت أمام رسالته وهدايته الطرق التي كانت مفتحة الأبواب لكل شرك وإلحاد.

سادسًا – أن هذا الفتح وجه الأمة الإسلامية بقوتها الروحية والمادية إلى الجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمته بين العباد، وجعل لهذا الجهاد ممن هداهم الله وأسلموا من أهل مكة، ومن أولادهم وأحفادهم جنودًا وأبطالًا حملوا ألويته ورايته

فانساحوا بها في البلاد يفتحون القلوب بالإيمان، ويفتحون البلاد بالعدل والإخاء والمرحمة والحب الإيماني، والمواساة والترافق.

سابعًا - أن هذا الفتح حرر المجتمع الإنساني من الخوف والظلم والجهل، فأصبح المسلم في ظل راية هذا الفتح لا يخاف أحدًا: إلا الله الذي بيده نواصي العباد.

ثامنًا - أن هذا الفتح المكي الأعظم أنقذ به أقوامًا، فأخرجهم من هاوية الكفر والضلال إلى أن أقعدهم مقاعد الصدق في ميادين البطولة، فكان منهم قادة للأمة في أفكارها، وسياستها، وعلومها ومعارفها، ومعالم حضارتها المسلمة، ومكنوا للحياة الصالحة بما تم على أيديهم من الفتوحات الهادية العادلة.

وبهذا كان هؤلاء تفسيرًا عمليًا لقوله تعالى:

﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾

(آل عمران: ١١٠)

وكان مجتمعهم الذي يعيشون معه، ويحيون بينه دعاة: إلى الله تعالى تفسيرًا تطبيقيًا لقوله عز شأنه:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ

لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾

(النور: ٥٥)

وكانوا بيانًا لحجة الله البالغة في قوله تبارك وتعالى:

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

(القصص: ٥٧)

غزوة حنين: جموع هوازن وثقيف

هـذه الغزوة فـي وقائعهـا وأحداثهـا، والذين قوتلـوا فيها غزوة واحدة متداخلة الوقائـع والأحداث، متلاحقة الحوادث، متشـابهة الأسـباب والدوافع، موحدة الآثار، ممتزجة الحشود وإن جعلهـا الـرواة غزوتين: غزوة هوازن فـي حنين وأوطاس، وغزوة ثقيف في الطائف.

بدأت هذه الغزوة في وادي حنين وهو على فرسـخ من عرفة تجمعت فيه قبيلة هوازن وهي من كبريات القبائل العربية عددًا وأوفرها عدة، وأكثرها أموالًا، وأشـدها تعززًا بتراث الجاهلية ومواريـث أعرافها وعاداتها، وانضـوى إليها من بقايا الجيوب القبلية والبطون المنتشـرة هنا وهناك من أعراب البوادي حول مكـة أعداد كثيرة، وانضمت إليها ثقيف كلها، وهي وإن قلت في أعدادها وأموالها عن هوازن، لكنها كانت أشـد منها عنادًا ومناكرة للإسـلام، وجموحًا متأبيًا، وفجـورًا في صلابة الكفر والشرك والوثنية.

وكانـت هوازن كما روى الواقدي في مغازيه - أقامت سـنة تجمع الجموع، وتُسَـيِّر رؤسـاءها في العرب لتجمعهم حولها لحرب رسـول الله ﷺ لما أفزعها انتصاره فـي غزواته انتصارًا تطامنـت له رقـاب قبائل العرب فـي مضاربهـا، إلا ما كان من قريش وعنادها حتى جاء أجلها في الاستسلام بفتح مكة.

ولما فرغ رسول الله ﷺ منها، وتمهدت له بعد كسر شوكتها، وذهاب طواغيتها إلى الفناء في الغزوات التي واقفت فيها النبي ﷺ وجند كتائبه المجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الله فزعت هوازن وثقيف فزعًا شديدًا حين عرفوا أن مكة فتحت، واستسلمت، وأسلمت طوعًا أو كرهًا، ومشى زعماء ثقيف وهوازن بعضهم إلى بعض، وحشدوا جموعهم في أعداد هائلة، وعدة وافرة وأموال متكاثرة؛ إشفاقًا ورهبة أن يغزوهم رسول الله ﷺ، وتقاولوا وهم في جموعهم التي بلغت أكثر من عشرين ألف مقاتل - كما جاء في كلام قائدهم مالك بن عوف - بما في صدورهم، وأبدوا ما في دخائل نفوسهم من الحرد الحقود، والتغاضب الفجور، وقالوا فيما تقاولوا به: قد فرغ محمد فلا ناهية له دوننا، ولا حواجز تمنعنا منه.

والرأي أن نغزوه قبل أن يغزونا، وزعموا متكذبين ليثيروا نخوة القتال في أوشابهم(١٨) وأتباعهم من الغوغاء كما تكذّب من قبلهم إخوة لهم من اليهود، يهود بني قينقاع عقب انتصار رسول الله ﷺ على قريش ببدر انتصارًا تجاوبت بأصدائه آفاق الجزيرة العربية كلها، وقد كانت قريش إذ ذاك على أحدّ شوكتها، وأقوى قوتها، وذروة غرورها، وأوفر العدد من طواغيتها وقادتها الذين كانوا أشد حردًا وحقدًا، وقد جعلت

(١٨) الأوشاب: جمع لامفرد له ومعناه: الأخلاط المتفرقة من الناس. (المجلة)

زمـام قيادتها فـي يد أفجر فراعيـن الأرض، وأخبث من مشـى علـى أديمها أبي جهل بن هشـام، فقادها بغـروره وفجوره إلى حتوف أشـرافها وصناديدها الذين كان يقدمهم إلى قليب بدر، ولكنهـا انهزمت على كثرة أعدادها وأوفر عددها، وأشـرافها وصناديدها الذين قتلهم الله تعالى بسيوف الإِسلام، فانكسرت شوكة قريش بهذه الغزوة وهي أول غزوة في الإِسلام.

تشابه بين غرور هوازن ويهود بني قينقاع

ولما بلغ هذا الانتصار يهود المدينة قالوا : لئن صح هذا فبطن الأرض خير من ظهرها ، وقال بنو قينقاع منهم يتكذبون ، وهم أخبث اليهود كفرًا ، وأصلبهم عودًا ، وأفجرهم لؤما ، وأبأسهم في قتال : إن محمدًا لاقى قومًا لا يحسنون القتال ، ولو قاتلنا لعلم أنّا الناس ، فأكذبهم الله تعالى وفضحهم ، وسلط عليهم رسوله ﷺ ، فحاصرهم وأذلهم حتى شفع لهم عنده ﷺ ربيبهم رأس النفاق والمنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ، وكانوا مواليه وحلفاءه ، فأطلقهم له رسول الله ﷺ ، وأجلاهم عن جزيرة العرب ، فخرجوا أذلاء مدحورين إلى أذرعات ، وقطع الله دابرهم فلم يبق لهم ذكر في الحياة .

كذلك قالت هوازن مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم ، حذو النعل بالنعل ، وأخذوا يتحاثون ، ويتحاضون على حرب رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم لبعض : فأجمعوا أمركم ، وسيروا إليه قبل أن يسير إليكم ، وساروا بجموعهم الحاشدة ومن ورائهم أموالهم ، ونساؤهم ، وذراريهم إلى وادي حنين ، وهو واد حطوط كثير الانحدارات والشعاب ، والمكامن ، وجعلوا عناج أمرهم إلى مالك بن عوف النصري ، وهو شاب غرير ، لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، لم يشهد من تجارب الحروب وخبراتها وسياستها شيئًا سوى أنه مغرور بشبابه وكثرة حشود قومه ومن انضوى إليهم ، تدفعه حماسة الشباب الغرير المغرور الذي

لـم يأخذ مـن دروس التجارب في الحياة ما يحجـزه عن التهور الأحمـق، المنطلق بالتيـه والبأو[١٩] والعنجهيـة[٢٠] عن قيود الفكـر المتأني الذي يحسـب لكل أمر حسـابه، ويلبس لكل حالة لبوسـها، ويتخـذ للأحداث أقرانها، وللوقائع شـكولها، ممـا جعله يسـلك مسـلكًا في تأهبـه للقتال، وملاقـاة جموع كتائب الجهاد المسـلمة بقيادة رسول الله ﷺ لم يُعْرَف لأحد من قادة العرب في حروبهم قبله، فقد حشد زعيم هوازن مالك بن عوف أموال هوازن ونسـاءها وذراريهـا ونزل بهم في وادي أوطـاس، واجتمع إليه أشـراف قومه، وفيهـم دريد بن الصمة، فارس فرسـانهم، وبطل أبطـال حروبهم الذي نهد تحت ظلال السـيوف والرماح، وكان قـد بلغ من العمر أرذلـه، فجعل منه ذلك مخبار تجارب في خوض معامع الحرب ومعرفة سياستها، وقـد جيء به في شـجار له، يقـاد به، ولم يبق فيـه للكر والفر شيء، وإنما بقي فيه التيمن برأيه والاستفادة من تجاربه، فلما أنزل من شجاره، قال: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس.

وعنـد ابـن إسـحاق أن هـوازن لمـا اجتمعـت علـى حرب المصطفى ﷺ سألت دريد بن الصمة الرياسة عليها، فقال لهم

---

(١٩) البأو: التكبر. (المجلة)

(٢٠) العناج حبل يكون في أسـفل الدلو يمسـكه إذا انقطع الحبل الآخر. وقوله (جعلوا عناج أمرهم إلى فلان) معناه جعلوه صاحب القرار فيهم. (المجلة)

دريد: وما ذاك؟ وقد عمي بصري، وما أستمسك على ظهر الفرس، ولكن أحضر معكم لأشير عليكم رأيي بشرط أن لا أخالف، فإن ظننتم أني مخالف أقمت ولم أخرج، فقالوا له: لا نخالفك، وجاءه مالك بن عوف، وقال له: لا نخالفك فيما تراه، فقال دريد: تريد أن تقاتل رجلًا كريمًا، قد أوطأ العرب وخافته العجم ومن بالشام، وأجلى يهود الحجاز إما قتلًا وإما خروجًا عن ذل وصغار، ويومك هذا الذي تلقى فيه محمدًا ما بعده يوم! قال مالك بن عوف: إني لأطمع أن ترى ما يسرك! قال دريد: منزلي حيث ترى، فإذا جمعت الناس سرت إليك، فلما خرج مالك بالظعن والأموال وأقبل دريد قال لمالك: مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير ويعار الشاء، فقالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم، ونساءهم وأبناءهم، فقال دريد: فأين مالك؟ فدعي إليه، وقالوا: هذا مالك، فقال له دريد: يا مالك إنك أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير وبكاء الصغير، ويعار الشاء؟ قال مالك بن عوف: سقت مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، قال دريد: ولم ذاك؟ قال مالك: أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم، فأنْقَضَ له دريد - أي صَوَّت له بلسانه وهو داخل فمه بما يشبه الريح الذي يخرج من الإنسان سخرية منه - ثم قال له إمعانًا في السخرية، راعي ضأن والله، ما

لـه وللحرب، وصفق بإحدى يديـه على الأخرى تعجبًا، وقال: وهل يرد المنهزم شـيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسـيفه ورمحـه، وإن كانت عليك فضحت فـي أهلك ومالك، ثـم قـال دريد لمالك: يا مالك بن عوف إنـك لم تصنع بتقديم البيضة، بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئًا، ارفعهم إلى متمنع بلادهـم، وعليا قومهم، ثم القَ الصُّباء علـى متون الخيل[٢١]، فـإن كانت لك لحقت بك مـن وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك.

قال مالك بـن عوف في غرور متعجرف، وعناد مسـتكبر، وتهـور أحمق: والله لا أفعل ذلك، إنك قد كبرت وكبر عقلك، فغضـب دريـد، وقال: يا معشـر هوازن، ما هذا بـرأي، إن هذا فاضحكم في عورتكم، وممكن منكم عدوكم، ولاحق بحصن ثقيف وتارككم.

ثـم توجه مالك بـن عوف إلـى قومه فقـال: والله لتطيعنني يا معشـر هـوازن أو لأتكئن على هذا السـيف حتـى يخرج من ظهري، فقالوا: أطعناك.

وتهيئـوا للقتال تحت إمـرة مالك بن عوف، ولم يسـمعوا لـرأي دريد بـن الصمة، فقال دريـد: هذا يوم لم أشـهده، ولم يفتني.

(٢١) الصُّباء والصُّباه بمعنى واحد. أي من تركوا دينهم. (المجلة)

مخابرات رسول الله تأتيه بأخبار أعدائه

وكان رسـول الله ﷺ على منهجه السياسـي في غزواته من الاهتمـام بتعـرف حال أعدائه قـد بعث عبد الله بـن أبي حدرد رضي الله عنه - كما في حديث جابر عند ابن إسحق من رواية الشيباني - وأمره بالدخول في عسكر هوازن وثقيف، ليعلم له علمهـم، ويتعرف حالهم، ليكون الإقـدام على مواقفتهم على بصيـرة من أمرهم، فأتاهم ابن أبي حـدرد رضي الله عنه، وكان رجلًا خبيـرًا بمداخل الأمور ومخارجهـا، فدخل فيهم، وجاس خلال عسـكرهم وأقام بينهم يومًا أو يومين، حتى سـمع وعلم ما قد أجمعوا عليه من حرب رسـول الله ﷺ، وسـمع من مالك بـن عـوف قائد القوم، وعرف أمرهم، وما هـم عليه من قوة في العدد والعدة.

وعند الواقدي أن عبد الله بن أبي حدرد انتهى إلى خباء مالك بـن عوف، فوجد عنده رؤسـاء هوازن، فسـمعه يقول لهم: إن محمدًا لم يقاتل قومًا قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقى قومًا أغمارًا، لا علم لهم بالحرب، فيظهر عليهم.

فـإذا كان السـحر فصفـوا مواشـيكم ونسـاءكم وأبناءكم مـن ورائكـم، ثم صفـوا محاربيكم، ثم تكـون الحملة منكم، واكسـروا جفون سـيوفكم، فتلقونه بعشـرين ألفًا مكسـورة الجفـون، واحملـوا حملة رجل واحد، واعلمـوا أن الغلبة لمن حمل أولًا.

فجـاء ابـن أبـي حدرد إلـى رسـول الله ﷺ فأخبـره الخبر،

فقال ﷺ لعمر بن الخطاب: «ألا تسمع ما يقول؟» فقال عمر: كذب، فقال ابن أبي حدرد لئن كذبتني يا عمر ربما كذبت بالحق، فقال عمر لرسول الله ﷺ: ألا تسمع ما يقول؟ فقال رسول الله ﷺ لعمر: «قد كنت ضالًا فهداك الله».

وفي حديث سهل بن الحنظلية عند أبي داود والنسائي بإسناد حسن، أن أصحاب رسول الله ﷺ ساروا معه فأطنبوا السير، فجاء رجل فارس - هو ابن أبي حدرد كما يقول الحافظ ابن حجر - وهو المتقدم في حديث جابر فقال:

إني انطلقت من بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، وإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم، بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله» وفي هذا الحديث أن النبي ﷺ قال: «من يحرسنا الليلة؟» قال أنس بن أبي مرثد أنا يا رسول الله، قال ﷺ: «فاركب» فركب ابن أبي مرثد فرسًا له، وجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له ﷺ: «استقبل هذا الشِّعب حتى تكون في أعلاه، ولا نُغَرنَّ من قبلك الليلة».

فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه، فركع ركعتين، ثم قال: «هل أحسستم فارسكم؟» قالوا: ما أحسسناه، فثوب بالصلاة، فجعل ﷺ يصلي، وهو يلتفت إلى الشعب، حتى إذا قضى صلاته، قال: «أبشروا فقد جاءكم فارسكم» فجعل ينظر إلى خلال الشجر في الشعب، فإذا هو قد جاء حتى وقف عليه فقال: إني انطلقت حتى إذا كنت في أعلى الشعب، حيث

أمرتني، فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما، فنظرت فلم أرَ أحـدًا، فقال ﷺ: «هل نزلت الليلة؟» فقـال: لا، إلا مصليًا أو قاضـي حاجة، فقال له ﷺ: «قـد أوجبت، فلا عليك أن تعمل بعدها».

وهـذه القصـة تمثـل أعظـم منـازل الرفعـة لمـن يحـرس المسـلمين، وهي نموذج مـن نماذج السياسـة الحكيمة التي تمثل معلمًا من معالم المنهج الإسـلامي في رسالة الإسلام، في وجوب اليقظة وتعرف أحوال العدو، ومراقبة حركاته، ومعرفة ما عنده من القوة عددًا وعدة، وما رسمه من خطط حربية، وهي سياسة من ألزم ما يلزم قادة كتائب الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته، ليتقي بها المجتمع المسلم المفاجآت من قبل العدو، ويتخذ لكل حركة من حركاته ما يتلاءم معها سلبًا وإيجابًا.

قـال الواقدي: لما كان ثلث الليل عمد مالك بن عوف قائد هوازن إلى أصحابه فعبأهم في وادي حنين، وهو واد حطوط ذو شـعاب ومضايـق، وفرق الناس، وأوعز إليهـم أن يحملوا على المسلمين حملة واحدة.

وعبَّأ رسـول الله ﷺ كتائبه وصفهم صفوفًا، ووضع الألوية والرايـات فـي أهلهـا، وتهيـأ ﷺ للحـرب، ولبـس درعين، والمغفر، والبيضة، واسـتقبل الصفـوف، وطاف عليهم بعضًا خلف بعض يتحدرون، فحثهم على القتال وبشـرهم بالفتح إن صدقوا وصبروا.

اتخاذ الأسباب لا ينافي التوكل

قال ابن القيم: من تمام التوكل استعمال الأسباب التي نصبها الله لمسبباتها قدرًا وشرعًا، فإنه ﷺ أكمل الخلق توكلًا، وقد دخل مكة والبيضة على رأسه، ولبس يوم حنين درعين وقد أنزل الله عليه:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. (المائدة: ٦٧)

وكثير ممن لا تحقيق عنده يستشكل هذا، ويتكايس في الجواب تارة بأنه فعله تعليمًا لأمته، وتارة بأنه قبل نزول الآية، ولو تأمل أن ضمان الله العصمة لا ينافيه تعاطيه لأسبابها، فإن ضمان ربه لا ينافي احتراسه من الناس، كما أن إخباره تعالى بأنه يظهره على الدين كله ويعليه لا يناقض أمره بالقتال وإعداده العدة والقوة ورباط الخيل، والأخذ بالجد والحذر والاحتراس من عدوه ومحاربته بأنواع الحرب والتورية، فكان إذا أراد غزوة ورى بغيرها، وذلك لأنه إخبار من الله عن عاقبة حاله ومآله بما يتعاطاه من الأسباب التي جعلها بحكمته موجبة لما وعد به من النصر والظفر وإظهار دينه وغلبة عدوه.

ونظر بعض جند كتائب الإسلام إلى صفوف المسلمين فأعجبته كثرتهم، فاهتبلها الشيطان وصرخ بها على لسان هذا الذي أعجبته كثرة جند الإسلام، قائلًا: لن نُغلب اليوم من قلة، فمضت الكلمة مسرعة تهوي إلى أسماع وقلوب من

كان منها على مسمع، تحمل إلى عامة الجند الفرحة الغافلة، والاسترخاء الكسول، والتواكل المتثاقل.

وقد روى يونس بن بكير، المعروف بالشيباني في زيادته على مغازي أستاذه ابن إسحاق، عن الربيع بن أنس أن رجلًا قال يوم حنين: لن نُغلب اليوم من قلة، قال الزرقاني مبينًا لجهالة الرجل في رواية ابن بكير عن الربيع بن أنس: هو غلام من الأنصار كما في حديث أنس عند البزار، بيد أن كلام الزرقاني لم يذهب الجهالة كلها عن الرجل، وإنما أذهب بعضها، وبقي على أكثر حاله في الجهالة، لأن قول الزرقاني أخذًا من حديث أنس عند البزار هو غلام من الأنصار لم يبين من هو هذا الغلام الأنصاري؟ وما مكانته في الجهاد؟ وما منزلته بين المسلمين المقاتلين؟ وقيل: إن قائل ذلك رجل من بني بكر لم يسم، فبلغت هذه الكلمة المغررة التي لم تكن تجري على منهج رسالة الإسلام، مسامع رسول الله ﷺ فشق ذلك عليه، وكرهه، روى الحاكم وصححه، وابن المنذر، وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه، قال: لما اجتمع يوم حنين أهل مكة، وأهل المدينة أعجبتهم كثرتهم فقال القوم: اليوم والله نقاتل حين اجتمعنا، فكره ﷺ ما قالوا وما أعجبهم من كثرتهم.

تحقيق في تبيان معنى الآية

وهـذه الرواية أقرب الروايات إلى أسـلوب القرآن الحكيم، إذ أسند الإعجاب إلى الجماعة ولم يخصص فردًا، ولهذا كانت المحنة التأديبية قاسـية شاملة، فلم يثبت مع النبي ﷺ إلا نفر من آل بيته، كان فيهم العباس عم رسـول الله ﷺ، وأبو سفيان بـن الحـارث ابن عمـه ﷺ، وبعض أبنـاء العبـاس، وأبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب، وفر جمهرة الجيش مدبرين كما قال الله تعالى معاتبًا ومنذرًا، ومحذرًا، ومعلمًا ومذكرًا:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾

(التوبة: ٢٥)

وفي قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ إشارة إلى أن النصر لا تلزمه كثرة الجند وضخامة الأهبة، وفيه إشارة إلى ما سبق لهم من مواقف كثيرة في مواطن الجهاد، ولم تكن لهم كثرة عددية، ولا قوة تأهبية، وإنما كانت قلوبهم مفعمة بالاعتماد على الله، والثقة به، يرون أن النصر من عنده، يؤيد به من يشاء من عباده.

وفيه عتـاب مطوي للذين أعجبوا بالكثـرة، فلم تغن عنهم

شيئًا، مع علمهم القاطع بأنهم نصروا وهم قلة في مواطن كثيرة، فلما كَثَّرهم الله نسوا ما كان من نعم الله عليهم بالنصر المؤزر في ظل القلة الصابرة المعتمدة على الله.

ثم أفصح الله تعالى عن صريح العتاب المعير لهم بقوله جل شأنه:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ مذكرًا لهم ما كان منهم في ظل الكثرة المعجبة لهم، وأنه لم يكن لهم مع الكثرة صبرهم الذي كان لهم مع القلة المتوكلة على الله في ثقة اليقين ورسوخ الإيمان، وأنهم لم يحتملوا مع الكثرة ما احتملوه في سوابقهم مع القلة، بل ضاقت عليهم أنفسهم لَمَّا اعتمدوا على الكثرة، وتخلوا عن مرارة الصبر، فولوا مدبرين، تاركين رسول الله ﷺ في نحر العدو في قلة قليلة من آل بيته وخلص المؤمنين.

ثم ذكر الله تعالى ما تفضل به من إنعام على رسوله ﷺ بإنزال السكينة عليه وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه، وتأييده بنزول الملائكة بعد أن فروا عنه، وحمى مقامه المنيف الأشرف من أن تشوبه أدنى شائبة افتخار أو إعجاب بكثرة الجند ووفرة الأهبة، فقال تعالى:

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ (التوبة : ٢٦)

وهذا تذكير من الله تعالى للمؤمنين بما سبق لهم في مواطن اشتد عليهم فيها الكرب، ففرج عنهم بما أمد الله به رسوله من جنود الغيب من الملائكة وغيرهم، وأجلُّ هذه المواطن غزوة بدر، إذ كان المؤمنون في قلة عددية مستضعفة العدة، فأنزل الله تعالى ملائكته مددًا لرسوله ﷺ ممتنًا بذلك على المؤمنين، فقال جل شأنه:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(آل عمران : ١٢٣)

وفي التعبير عن القلة بقوله:

﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ تلميح إلى ما كان عليه المؤمنون من قلة في العدد وضعف في الأهبة بالنسبة إلى ما كان عليه أعداؤهم من وفرة العدد وقوة العدة والأهبة.

وفيه إشارة إلى ما كان يساور أنفسهم من رهبة ملاقاة العدو في عدده وعدته.

وفي التعبير بقوله: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ بما فيه من افتتاح الكلام بأقوى المؤكدات وإسناد النصر لله تعالى، وذكر حال المؤمنين في قلة عددهم وضعف عدتهم التي

لم تكن تؤهلهم في ظاهر حالهم لما تنزل عليهم من النصر المؤزر، الذي لم تكن له أسبابه الظاهرة في مجتمعهم المسلم الناشئ، إشارة إلى أن النصر ليس بالكثرة، وأن عدم الغلبة ليس بالقلة، وإنما النصر بيد الله، يؤتيه من يشاء من عباده.

فلا فخر، ولا مكان للإعجاب بالكثرة ليسند إليها الغلبة، وتسند الهزيمة إلى القلة، والله تعالى يقدم لعباده العبرة في تصاريف أقداره لعلهم يعقلون.

ومن أعجب العجب أن يروي ابن إسحق عن بعض أهل العلم بمكة إسناد هذه الكلمة البشعة (لن نغلب اليوم من قلة) إلى سيد الخلق محمد ﷺ، فيقول ابن إسحق: حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال حين رأى كثرة من معه من جنود الله تعالى: (لن نغلب اليوم من قلة).

وليس العجب من أن يرويها ابن إسحق عن بعض أهل مكة الذي يحتمل أن يكون من الطلقاء الذين دخلوا في الإسلام ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، وكان رسول الله ﷺ بما جُبل عليه من الرحمة والرأفة يستألفهم لعلهم يهتدون إنقاذًا لهم من عذاب الخلود في الجحيم.

والزمن بين غزوة حنين وفتح مكة لم يكن كافيًا ليفتح مغاليق قلوب هؤلاء المستألفين ويخرجهم من ظلمات العناد ليستقر الإيمان في أفئدتهم استقرارًا مطمئنًا.

وروايــة أن قائل هذه الكلمة الفخـورة بالكثرة المعجبة بها غــلام من الأنصــار، كما قال الزرقاني، أو أن قائلها مســلمة بن وقش الأنصاري ليست بعيدة عن الاحتمال، والأنصار أفرحهم جدًا بفتح مكة، ورأوا أنه أمد الإسـلام بقوة فوق قوة ما كان له فـي مجتمع المدينة، فأخذوا عن منهج رسـالة الإسـلام حينما رأوا كتائـب الجهاد لما صفهم رسـول الله ﷺ صفوفًا بعضهم وراء بعـض، فظهرت للعين كثرتهم، وغالـب هذا القائل فرح أشـبه ما يكون بالغفلة والعجب، فقال ما قال على مسـمع من رسول الله ﷺ ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ وكرهه.

وليـس العجب أن يروي ابن إسـحق عن بعض مجاهيل أهل العلم بمكة إسـناد هذه الكلمة البشعة المعجبة بكثرة الرجال دون اسـتحضار لعظمـة فضـل الله تعالـى في حفاوته برسـوله محمد ﷺ ، وإنعامـه عليه وعلى أصحابه بنعمة النصر مع قلة عددهم وضعف عدتهم، ودون استحضار لما كان عليه ﷺ من التواضع لله وهو يدخل مكة فاتحًا مظفرًا منصورًا، فقد أجمعت الروايـات على أنه ﷺ دخل مكـة في جيش عرمرم جرار، وهو يضع رأسه على رحله حتى كانت لحيته تمس الرحل تواضعًا لله تعالى وشكرًا على إنعامه وفضله.

ولكن العجب العاجب أن تذكر هذه الرواية التي لا زمام لها ولا خطـام، ثم ينتهـض بعض أهل العلم كالطيبي في حواشـيه علـى الكشـاف للدفـاع عنها وتأويـل عبارتها تأويلًا متعسـفًا

متمحلًا في توجيهها، وهذه التمحلات في تأويل الروايات الباطلة من أخطر ما ابتلي به الإسلام في تراثه الفكري، وماذا على هؤلاء العلماء لو أنهم أهملوا مثل هذه الروايات الباطلة، ولم يكثروا بها على الناس، وليسوا كلهم في طاقتهم فهم هذه التأويلات المتعسفة والتمحلات المتكلفة.

وقد تبع الزرقاني الطيبي وأمثاله، فقال: وعلى فرض صحة أن المصطفى ﷺ قال هذه الكلمة أو الصديق رضي الله عنه، فليس المراد الافتخار، بل التسليم لله، فالمقصود نفي القلة، لا نفي الغلبة، أي إن غلبنا فليس لأجل القلة، بل من الله الذي بيده النصر والخذلان، ونقول للزرقاني: هل يقف أعداء الإسلام عند هذا التأويل، يرضونه جوابًا عن الإشكال الذي قد يؤدي إلى أمر عظيم في حق النبي ﷺ؟

ومما يدخل في دائرة العجب أن الواقدي ـ وليس هو بالنسبة لابن إسحاق بخير الرجلين ـ روى عن سعيد بن المسيب أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، قال: يا رسول لله، لن تغلب اليوم من قلة، وهذه رواية باطلة، ألصقت إلصاقًا بسيد التابعين سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى، لأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان أخص الأخصاء برسول الله ﷺ في أخلاقه وآدابه، وفقهه في الدين وعلمه بأحكام الشريعة، ومعرفته بالله تعالى، فلا يمكن أن يكون هو قائلها لأنها بعيدة كل البعد عن رسوخ الإيمان وقوة اليقين، والصديق منهما في الذروة بعد رسول الله ﷺ.

وأعجب من هذا العجب أن الحافظ العيلم[٢٢] أبو عمر بن عبد البر يجزم بهذه الرواية الباطلة سندًا ومتنًا، وهذا بعيد عن منهج الحافظ ابن عبد البر في معرفته بالروايات ونقدها، ولعل هذا مما أدخل عليه في بعض مؤلفاته، ولا سيما درره، وهو كتاب لطيف موجز، أشبه بفهرست لحوادث السيرة النبوية.

(٢٢) العَيْلَمُ: البحر والمراد الحافظ العلامة. (المجلة)

فرار الطلقاء كان سببًا للهزيمة في الجولة الأولى

قـدَّم رسـولُ الله ﷺ خالد بن الوليـد ـ وكان على قيادة بني سـليم، وأهـل مكة مـن الطلقاء الذين لم يسـتقر الإِسـلام في قلوبهـم اسـتقرارًا مدعمًـا بالمعرفـة والإِخـلاص ـ ومن هؤلاء كان البلاء، وكانت المحنة القاسـية، فقد استقبلهم من هوازن ومـن انضوى إليهـا ما لم يروا مثلـه قط من السـواد والكثرة، وكان ذلـك في غبـش الصبح وعمايتـه، فاسـتقبلتهم كتائب العدو خارجة من مضايق الوادي وشـعابه، وحملوا على مقدمة المسلمين من بني سليم وطلقاء مكة حملة واحدة، فانكشفت خيـل بني سـليم مولية، لتقدم كثير ممـن لا نية لهم في القتال وأكثرهـم من شـباب الطلقاء ومرضى القلوب، وتبعهم سـائر أهل مكـة ممن كان إسـلامه مدخـولًا، وقال بعضهـم لبعض: اخذلوه ـ يعنون رسـول الله ﷺ ـ فهذا وقتـه، فانهزموا وتبعهم الناس وهم لا يشعرون.

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين من الوادي، وجعل ينادي فـي الناس: «أيهـا الناس هَلُمَّ إلي، أنا رسـول الله، أنا محمد بن عبد الله».

وعنـد ابن سـعد، وابن إسـحاق، ورواه أحمـد، وابن حبان عن جابر، قال: لما اسـتقبلنا وادي حنيـن انحططنا في جوف واد حطـوط، له مضايق وشـعوب، وإنما ننحدر فيـه انحدارًا، وفي عماية الصبح، وقد كان القوم سـبقونا إلى الوادي فكمنوا

في شعابه وأجنابه، ومضايقه، وتهيئوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب شدوا علينا، شدة رجل واحد، وكانوا رماة، فانطلق الناس.

هذه الرواية صريحة في أن المسلمين انكشفوا بمجرد التلاقي، وولوا مدبرين كما أخبر الله عنهم، وفي حديث البراء بن عازب ما يخالف هذا، ويفيد أن انكشاف المسلمين وتوليهم مدبرين إنما كان بعد تلاقيهم بالمشركين وقتلهم حتى كشفوهم وأكبوا على الغنائم يجمعونها، فاستقبلهم العدو بالسهام فانكشفوا.

وهذا خلاف جوهري لم نر من وقف عنده للجمع بين الروايتين أو ترجح إحداهما على الأخرى، ونحن نميل إلى ترجيح رواية ابن سعد ومن معه من الأئمة على رواية البخاري، لأن هوازن أعرف بمضايق واديهم وشعابه ومنحدراته، ولعلهم وضعوا أكثر من كمين في هذه المضايق والشعاب، فلما حمل المسلمون على من بدا لهم من كتائب هوازن خرجت الكتائب الأخرى من مكامنها، وكانوا رماة فرشقوا المسلمين بسهامهم، وحملوا عليهم حملة واحدة، فانكشف الطلقاء وتخلخلت صفوف المسلمين بما فاجأهم من الحملة عليهم وولوا مدبرين.

وفي حديث أنس عند البخاري: فأدبروا عنه حتى بقي وحده، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ونادى كتائبه

وأصحابه مذكرًا داعيًا لهم إلى الكرة على العدو، مقويًا عزائمهم بأنه ﷺ رسول الله، وقد وعده الله نصره.

روى الواقدي عن قتادة قال: مضى سُرْعانُ المنهزمين إلى مكة يخبرون أهلها بالهزيمة، فسر بذلك قوم من أهل مكة وأظهروا الشماتة، وقال قائلهم: ترجع العرب إلى دينها ودين آبائها، وقد قُتل محمد وتفرق أصحابه، فقال عتاب بن أسيد أمير مكة: إنْ قُتل محمد فإن دين الله قائم، والذي يعبده محمد حي لا يموت، فما أمسوا حتى جاءهم الخبر بنصره ﷺ، فسُر عتاب بن أسيد وكبت الله من كان يسره خلاف ذلك.

وعند ابن إسحاق: لما رأى من كان معه ﷺ من جفاة أهل مكة ما وقع، وتكلم رجال بما في أنفسهم، فقال أبو سفيان بن حرب - وكان إسلامه بعد مدخولًا - لا تنتهي هزيمتهم دون البحر وإن الأزلام لمعه في كنانته.

وصرخ جبلة أو كلدة بن الحنبل - وهو أخو صفوان بن أمية لأمه - ألا بطل السحر، فقال له أخوه صفوان وهو على شركه لم يسلم بعد: أسكت فض الله فاك: لأن يربني رجل من قريش أحب إلى من أن يربني رجل من هوازن: وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة: اليوم أدرك ثأري، أقتل محمدًا، فأقبل شيء حتى غشي فؤادي، فعلمت أنه ممنوع مني، فالتفَتَ إليَّ ﷺ وتبسم، وعرف ما أردت فمسح صدري وذهب الشك.

كَرَّة صارمة بعد فَرَّة عابرة
وجاء الله بالنصر المؤزر

في صحيح مسلم أنه ﷺ قال للعباس: وناد يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة - أي شجرة الرضوان التي بايعوه تحتها على أن لا يفروا حتى يموتوا بين يديه أو ينتصروا على المشركين - يا أصحاب سورة البقرة».

وقد التمس الزرقاني رحمه الله حكمة لإدخال سورة البقرة في النداء على كتائب الجهاد، فقال: خُصَّت بالذكر حين الفرار لتضمنها قوله:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾
(البقرة: ٢٤٩)

أو لتضمنها وقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾
(البقرة: ٤٠)

أو لاشتمالها على قوله جل شأنه:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾
(البقرة: ٢٠٧)

وكان العباس رضي الله عنه رجلًا صيتًا جهير الصوت، قوي الصرخة: فنادى بما أمره به رسول الله ﷺ، وبلغ نداؤه مسامع المسلمين، وهم على مسافات بعيدة، فأقبلوا سراعًا كأنهم الإبل إذا حنت على أولادها، وهم يقولون: لبيك، يا لبيك،

حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع انحدر عنه وأرسله وأخذ درعه، يقذفها في عنقه، وأخذ سيفه وترسه، يَؤُمّ الصوتَ، وازدحموا على رسول الله ﷺ ازدحامًا شديدًا، حتى كأنه ﷺ في حرجة فقال العباس رضي الله عنه، فلرماح الأنصار كانت أخوف عندي على رسول الله ﷺ من رماح الكفار، لشدة ما أحاط الأنصار برسول الله ﷺ، وهم يقاتلون عنه، ويمحون ما كان من هفوتهم في التولي عنه ﷺ.

فأمرهم ﷺ أن يصدقوا الحملة على أعدائهم المشركين، فقاتلوهم قتالًا شديدًا جعل رسول الله ﷺ يشرف عليهم مبتهجًا بشجاعتهم وبطولتهم، وقال: «الآن حمي الوطيس» وهذا من أفصح الكلام الذي لم يسمع من أحد قبله ﷺ.

وتناول حفنة من الحصباء بيده الشريفة أو ناولها له عمه العباس أو غيره من أصحابه رضي الله عنهم ورمى بها وجوه الأعداء المشركين وهو يقول: «شاهت الوجوه»، فهزمهم الله تعالى هزيمة منكرة، فَرَّقت جموعهم وأرسلوا أرجلهم بالفرار لا يلوون على شيء.

ولما أقبل المسلمون بعد فيئتهم على رسول الله ﷺ، وسيوفهم في أيديهم كأنها الشهب ـ وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل الملائكةَ مددًا، وقتل من قتل من المشركين، وأفاء الله على رسوله أموالهم، وكانت أكثر

أمــوال الغنائم في جميع الغزوات ، وفر قائدهم مالك بن عوف في جماعة من أشراف قومه حتى بلغ حصن الطائف ـ أسلم[٢٣] كثيــر من أهل مكة الذين بقيت قلوبهم على وثنيتها وشــركها حين رأوا نصر الله لرسوله وعزاز دينه .

روى الواقدي أن سعد بن عبادة جعل يصيح يومئذ بالخزرج ثلاثًا ، وأسـيد بن حضير بــالأوس ثلاثًا ، فثابــوا إليهما من كل ناحية ، كأنهم النحل تأوي إلى يعسوبها .

(٢٣) جملة (أسلم) هي جواب الشرط الذي تؤسس له كلمة (ولما) في أول الفقرة. (المجلة)

نهي رسول الله ﷺ عن قتل من لم يكن من أهل القتال

ولما بلغ رسول الله ﷺ أن القتل أسرع في ذراري المشركين قال صلوات الله عليه: «ما بال أقوام بلغ بهم القتل حتى بلغ الذرية، ألا لا تقتل الذرية» ثلاثًا، فقال أسيد بن حضير: أليس إنما هم أولاد المشركين؟ فقال ﷺ: «أوليس خياركم أولاد المشركين؟ كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو ينصرانها».

وروى الإمام أحمد وأبو داود عن رباح بن ربيع أنه مر هو والصحابة على امرأة مقتولة مما أصابت المقدمة، فوقفوا ينظرون إليها ويعجبون من خلقها حتى لحقهم ﷺ على راحلته، فانفرجوا عنها، فوقف عليها ﷺ فقال: ما كانت هذه لتقاتل فقال لأحدهم: «الحقْ بخالد»، فقل له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدًا، أو امرأة، أو عسيفًا».

وروى الواقدي عن شيوخ ثقيف: مازال ﷺ في طلبنا ونحن مولون، حتى إن الرجل ليدخل حصن الطائف، وإنه ليظن أنه على أثره من رعب الهزيمة، وروى الواقدي عن مالك بن أوس: حدثني عدة من قومي شهدوا ذلك اليوم، يقولون: لقد رمى رسول الله ﷺ تلك الرمية من الحصى، فما منا أحد إلا يشكو القذى في عينيه، ولقد كنا نجد في صدورنا خفقانًا كوقع الحصى في الطاس، ما يهدأ ذلك الخفقان.

تشابه الموقفين بين أحد وحنين في المحنة والمنحة

وما ذكره الله تعالى في غزوة حنين من انكشاف كتائب المجاهدين في أول ملاقاة العدو، وتوليهم مدبرين عن رسول الله ﷺ، إذ أعجبتهم كثرتهم فركنوا إليها، فلم تغن عنهم شيئًا، وذلك في قوله جل شأنه:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

(التوبة: ٢٥)

ثم تَدارُك الله تعالى لهم بفضله، ورجوعهم إلى رسول الله ﷺ مقبلين، وسيوفهم في أيديهم كأنها الشهب إثر نداء العباس عليهم بما أمره به رسول الله ﷺ من أوصاف الشرف ونعوت البطولة الفدائية المؤمنة، وما عتب الله عليهم من ركوبهم إلى الأسباب المادية في إعجابهم بكثرتهم، وقولهم: لن نغلب اليوم من قلة، وإراءتهم ببصائرهم وأعين أبصارهم أن هذه الكثرة لم تغن عنهم شيئًا، بل كان إعجابهم بها وبالًا عليهم، أذهلهم عن مفاجأة العدو، فلم يثبتوا له، وولوا مدبرين تاركين قائدهم الأعظم ورسولهم الأكرم سيد الخلق وحيدًا في نحر العدو، إلا من قلة قليلة ثبتت معه من الأبطال الأشاوس من آل بيته الأكارم، وخُلّص خلصاء المؤمنين، وما امتن به سبحانه

عليهم بإنزال السكينة على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، وبتنزل جنود الغيب مددًا من الله من الملائكة وغيرهم، ومن تسليطهم على أعدائهم بالقتل والتشريد والإذلال، ثم أذاقهم حلاوة التوبة المنيبة إلى الله معلقًا لها بمشيئته وإرادته لإشعارهم أن الأمر كله لله، ومن ختمه الآيات الكريمات بما غسل به ما علق بقلوبهم، وذلك في قوله عز شأنه:

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(التوبة: ٢٦، ٢٧)

كل ذلك يجعل الموقف في حنين أقرب شبهًا بالموقف في غزوة (أحد) في جميع مراحله، وكل ما كان هناك من دروس تربوية للمجتمع المسلم جعلها الله نماذج لإبراز معالم منهج الرسالة الإسلامية الخالدة، وتطبيق رسول الله ﷺ لها تطبيقًا عمليًا، لتكون أسوة لأجيال الإسلام في مستقبل الحياة أينما كانوا من أرض الله، وكيفما كانوا قوة وعلمًا ومعرفة وأدبًا وسياسة ونظمًا اجتماعية إن هم صبروا عليها وأقاموا دعائمها فيما بينهم علمًا وعملًا، يجده المسلم المتفقه في دين الله وسيرة النبي ﷺ باعتبارها منهجًا قويمًا لسير المجتمع المسلم في حياته العملية عليها هنا في غزوة حنين بدءًا

ونهايــة، فهناك في غزوة «أحد» ختمت آيـات العتاب التربوي بالعفو، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾

وهنــا في غــزوة حنين ختمــت الآيــات المعاتبــة بالمغفرة والرحمــة بعد الإشــارة الحكيمــة المحكمة إلــى أن الله تعالى يتوب على من يشــاء، وذلك إطماع في التوبة ليعم كل مســلم يهفــو ثــم ينيب إلــى الله بالتوبة، فــلا يبقى في قلــب مؤمن أثر لليــأس مــن رحمــة الله، ولا يبقى لهفــوات انطــلاق بغير خطم تزمها عن الجموح في مراتع الشهوات وطواعية الشيطان.

وليــس بعــد عفــو الله ومغفرتــه ورحمتــه وحكمــه مــكان للحديــث عــن أن هذا الفرار الــذي كان إلى توبــة منيبة إلى الله بالنــدم - معصية من كبائر الذنــوب أو ليس بمعصية، حتى ولا مــن صغائر الهفوات وتوافه الذنــوب، ولا يعظم ذنب أمام عفو الله، ولا يصغر ذنب أمام جلال الله.

ومــن الغريــب أن يتخــذ بعــض العلماء مناســبة هــذا العتاب المتلطف في سيرة أصحاب رسول الله ﷺ ذريعة إلى الحديث عن الفرار من الزحف هل هو من كبائر الذنوب أو ليس من كبائرها.

أقوال العلماء في الفرار من الزحف وهل يدخل فيه الفرار عن رسول الله ﷺ

وقد أطنب بعض المؤلفين في السيرة وفي غيرها، وأطالوا رشاء القول في الخلاف بين العلماء في ذلك، حتى التمس بعضهم الاعتذار عن الفرار هنا في غزوة حنين بأن العدو كان ضعف عدد المؤمنين أو أربى من الضعف، ولا ندري هل كثرة العدو عددًا وعدة تبيح للمؤمنين التراخي عن الجهاد، وتبيح لهم الفرار من وجه العدو إذا كان أكثر منهم بأضعاف مضاعفة؟ ولكنا نعلم علم اليقين أن المسلمين واقفوا الفرس والرومان في وقائع متعددة، وكانت أعداد العدو وعدته أكثر من أضعاف أعداد المسلمين وعدتهم، وقد نصر الله تعالى المؤمنين على قلتهم النسبية على أعدائهم، ففتحوا جميع فارس وجعلوها أرض إسلام وإيمان وعلم ومعرفة، وطهروا أرض العرب في الشام ومصر والمغرب من حشود الروم وحرروها للإسلام ورسالته الخالدة، فلم يقل أحد أن الكثرة العددية في العدو تُقْعِد عن الجهاد، أو تجيز الفرار أمام العدو ليتخذ من بلاد الإسلام ديار استعباد وإذلال.

وذهب أبو جعفر الطبري إلى أن الانهزام المنهي عنه هو ما وقع على غير نية العود، ونقول لأبي جعفر الطبري: كيف يحكم على أمر بأنه منهي عنه أو غير منهي عنه إذا كان مشترطًا فيه معرفة أمر مغيب، تستحيل معرفته إلا بعد وقوعه والإبانة

عنه، والنية أمر مكنون في الصدور لا يعلمه إلا الله تعالى، ومن ارتضى من رسول يعلمه بوحيه ما لم يعلم، وإلا من انطوى عليه صدره ممن نواه وعزم عليه، وليس لدينا أثر صحيح ثابت أن رسول الله ﷺ أخبر عن الفارين بأنهم فروا إلى عود، ولا أن أحدًا من الفارين أخبر عن نفسه أنه فر وهو ينوي العودة.

ثم قال الطبري: وأما الفرار للكثرة فهو كالمتحيز إلى فئة - يعني أنه ليس انهزامًا منهيًا عنه - وهذا كلام لا يستقيم، ولا يقبل، لأنه لم يُذكر له مأخذ من نص، ثم إن الفرار في غزوتي (أحد) و(حنين) كان عن رسول الله ﷺ، وليس وراءه ﷺ فئة يتحيز إليها، فكيف يكون الفرار للكثرة على إطلاقه جائزًا كفرار المتحيز إلى فئة؟

وقال السهيلي في الروض: لم يجمع العلماء على أن الفرار من الزحف من الكبائر إلا في يوم بدر وهو ظاهر قوله:

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (الأنفال: ١٦)

ثم أنزل التخفيف في الفارين يوم (أحد) وهو قوله:

﴿ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٥٥)

وكذا أنزل

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ (التوبة: ٢٥)

إلى قوله:

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (التوبة: ٢٧)

وهذا كلام غير مسلم على إطلاقه، لأن ما ذكر من الآيات في يوم بدر، مقيد بزمن معين، وهو يوم بدر، كما يفهمه صراحة قوله: «يومئذ»، وكذا ما أنزل يوم «أحد» و«حنين» إنما أنزل في وقائع معينة لقوم معينين، وهم الذين شهدوا «أحدًا وحنينًا» وفروا ثم فاءوا، وليس في النص ما يشعر بالعموم الشمولي الذي يتعداهم إلى غيرهم، وهؤلاء عوتبوا ثم شرفوا بالعفو والمغفرة والرحمة، فلا تصلح هذه الآيات أن تكون بناء لقاعدة لكون التولي يوم الزحف من كبائر الذنوب، وإنما مأخذ ذلك من حديث رسول الله ﷺ الثابت عنه حين سئل عن الكبائر فذكر منها ـ في بعض الروايات الصحيحة ـ التولي يوم الزحف.

وقد حاول ابن القيم رحمه الله أن يبين حكمة ما وقع في حنين من المحنة، ثم الكرة بعد التولي، والنصر بعد الهزيمة في أسلوب مطنب، كما حاول من قبل في غزوة «أحد» إبراز ما كان في محنتها من دروس تربوية للمجتمع المسلم، وحكم إلهية ترشد المؤمن إلى أنه تعالى أنزل رسالة الإسلام الخالدة لتكون منهجًا سلوكيًا لحياة الأمة الإسلامية في قيادتها الإنسانية، وقد ذكرنا منه في مناسبته ما استدعى المقام ذكره.

وقال هنا في «الهدي النبوي» ونقله عنه بشيء من التصرف القسطلاني في مواهبه وعلق عليه شارحها الزرقاني.

كان الله تعالى قد وعد رسـول الله ﷺ إذا فتح مكة أن يدخل الناس في دين الله أفواجًا - يشير ذلك إلى سورة

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ (النصر: ١، ٢)

فالفتـح في السـورة فتح مكـة - ودانت له العرب بأسـرها، فلمـا تم لـه الفتح المبيـن اقتضـت حكمته تعالى أن أمسـك قلـوب هـوازن ومن تبعها عن الإسـلام، وأن يجمعـوا ويتأهبوا لحربه عليه الصلاة والسـلام ليظهر أمره تعالى، وإتمام إعزازه لرسوله، ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكرانًا لأهل الفتح، وليظهر الله تعالى رسوله وعباده المؤمنين وقهره لهذه الشوكة العظيمـة التي لـم يلق المسـلمون قبلها مثلها، قـال الزرقاني في الكثرة وشـدة البأس - وغاية مـا لقوا في «أحد» ثلاثة آلاف، وكان لهـم الظفر ابتداء، لكن لما خالـف الرماة موقفهم الذي أمرهم ﷺ بعدم مفارقته استشـهد من استشـهد إظهارًا لأنه لا ينبغي مخالفته ﷺ في أمر ما، وغاية ما لقوا في الخندق عشرة آلاف.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ﴾ (الأحزاب: ٢٥)

وأمـا هؤلاء فكانوا أضعـاف المسـلمين - ولا يقاومهم بعد أحد من العرب، فاقتضت حكمته سـبحانه أن أذاق المسلمين أولًا مرارة الهزيمة والكسـرة، مـع كثرة عَددهم وعُددهم وقوة شوكتهم ليطامن رءوسًا رفعت بالفتح، ولم تدخل بلده وحرمه

بتواضع كما دخل عليه الصلاة والسلام، فابتلوا بقصة حنين، منعًا لهم من إظهار الترفع، وتنبيهًا لهم على أن المطلوب منهم التواضع، وإظهار الشكر كما فعل ﷺ في دخوله، واضعًا رأسه منحنيًا على مركوبه، تواضعًا لربه، وخضوعًا لعظمته أن أحل له بلده ولم يحله لأحد قبله، ولا لأحد بعده، وليبين سبحانه لمن قال: لن نغلب اليوم من قلة أن النصر إنما هو من عند الله، بفضله، وأن من ينصره فلا غالب له، ومن يخذله فلا ناصر له، وأنه سبحانه هو الذي تولى نصر رسوله ودينه لا كثرتكم التي أعجبتم بها، فإنها لم تغن عنكم شيئًا فوليتم مدبرين.

فلما انكسرت قلوبهم أرسلت خِلع الجبر مع بريد ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (التوبة: ٢٦)

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن خِلع النصر وجوائزه إنما تفاض على أهل الانكسار، قال الله تعالى:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ (القصص: ٥، ٦)

وافتتح الله تعالى غزو العرب بغزوة بدر، وختم غزوهم بغزوة حنين، ولهذا يجمع بينهم فيقال: غزوة بدر وحنين.. ورمى فيهما رسول الله ﷺ وجوه المشركين بالحصى، وبهاتين الغزوتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله ﷺ فالأولى خوفتهم وكسرت من حدهم، والثانية استغرقت قواهم،

واستنفدت سهامهم، وأذلت جمعهم حتى لم يجدوا بدًا من الدخول في دين الله، وجبر الله أهل مكة بهذه الغزوة، وفرحهم بما نالوا من النصر والمغنم، فكانت كالدواء لما نالهم من المحنة، وإن كان عين جبرهم وتمام نعمته تعالى عليهم بما صرفه عنهم من شر من كان يجاورهم من أشرار العرب وهوازن وثقيف بما أوقع بهم من الكسرة، وبما قيض لهم من دخولهم فى الإسلام، ولولا ذلك ما كان أهل مكة يطيقون مقاومة تلك القبائل من شدتها.

ثم أمر رسول الله ﷺ بطلب العدو، فانتهى بعضهم إلى الطائف، وفي هؤلاء قائد هوازن مالك بن عوف في جماعة من أشراف قومه، فإنهم لما انهزموا وقف مالك بن عوف على ثنية في شبان أصحابه فقال لهم: قفوا حتى يمضي ضعفاؤكم، ويتتام آخركم، فبصر بهم الزبير بن العوام، فحمل عليهم حتى أهبطهم من الثنية، وهرب مالك بن عوف إلى الطائف، وبعضهم انتهى في فراره إلى نخلة، فتبعتهم خيل المسلمين.

وروى البزار عن أنس بن مالك قال: لما انهزم المشركون انحاز دريد بن الصمة في ست مئة نفس على أكمة، فرأوا كتيبة، فقال دريد: خلوهم لي، فخلوهم، فقال هذه قضاعة ولا بأس عليكم منهم، ثم رأوا كتيبة مثل ذلك، فقال هذه سليم، ثم رأوا فارسًا وحده، فقال دريد: خلوه لي، فقالوا: معتجر بعمامة سوداء فقال هذا الزبير بن العوام، وهو قاتلكم ومخرجكم من

مكانكـم هذا ، فالتفـت الزبير فرآهم فقال : عـلام هؤلاء هنا ؟ فمضـى إليهم ، وتبعـه جماعة مـن المجاهدين ، فقتلـوا منهم ثـلاث مئة ، وحز رأس دريد بـن الصمة ، فجفلوا بين يديه ، وفى قتل دريد رواية أخرى مشهورة ، ولكن رواية البزار أقوى سندًا .

واستشـهد من المسـلمين أربعة ، وقتل من المشركين أثناء النـزال أكثـر من سـبعين ، وقيل أن هـذا العـدد كان من ثقيف وحدها .

روى البيهقـي عن عبد الله بن الحارث عن أبيه قال : قتل من أهل الطائف يوم حنين مثل من قتل من المسلمين يوم بدر .

طلب فُرَّار هوازن وثقيف

كان رسول الله ﷺ بعد فراغه من وقعة حنين -بانتصاره على حشود هوازن وثقيف انتصارًا رعبل جموعهم، وبدد كثرتهم، وأذلَّ غرورهم، وأرغم معاطسهم، وشتت شملهم، ففرَّ منهم من وجد للفرار فرصة، وتفرق هؤلاء الفارون بين الوديان والشعاب وقمم الجبال ورءوس التلال، ومنهم من ذهب إلى الطائف مع فُرَّار ثقيف، وكانوا كلهم مفزعين، مرعوبين- قد أمر بطلب فلول المنهزمين، وتتبع الفرار خشية أن يتجمعوا لحربه مرة أخرى، فبعث أبا عامر الأشعري، عم أبي موسى (عبد الله بن قيس الأشعري) المشهور بين الصحابة بعلمه وفضله، إلى الذين فروا إلى وادي (أوطاس) وهو وادٍ قريبٌ من وادي حنين حتى كان يعد أنه هو.

وإلى هذا الرأي ذهب القاضي عياض رحمه الله، فقال: هو موضع حرب حنين، هكذا نص عبارته بلفظ (حرب) بالحاء المهملة، ولكن الحافظ ابن حجر لم يرتضِ قولَ عياض، ورجح عليه قول غيره، فقال: وهذا الذي قاله ذهب إليه بعض أهل السير، والراجحُ أن وادي أوطاس غير وادي حنين، ويوضحه ما ذكره ابن إسحاق: أن الوقعة كانت في وادي حنين، وأن هوازن لما انصرفوا صارت طائفة إلى الطائف، وطائفة إلى نخلة، وطائفة إلى أوطاس، قال الزرقاني: هكذا في الفتح عن عياض (حرب) بالحاء المهملة، وهكذا يأتي اعتراض الحافظ

على عياض، وتصحف على من قرأ (قرب) بقاف، وأجاب ابن حجـر بأنه لا يخالـف الراجح؛ لأن غاية ما فيـه أنه مع مغايرته لحنين قريب منها.

وهـذا خلاف ليس تحتـه كبير طائل إلا ما فيـه من التحري والدقـة التي لو بذلت فـي فقه متون الأحاديث لكان فيها أعظم ما يقدم من خدمة للسنة النبوية؛ لأن الاحتمال يمكن أن يكون متسـعًا لقبول كل من القولين، فالقاضي عياض رحمه الله يقول مع أهل المغازي والسير: إن أوطاس هو الوادي الذي وقعت فيه حرب حنين، ويؤيد ذلك قول دريد بن الصمة إذ سـأل أشـراف هـوازن فقال لهم: بأي واد أنتم؟ قالوا بأوطاس، قال دريد: نعم مجـال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سـهل دهس، فهذا قول بيِّن أن الوقعة كانت بأوطاس وهي حرب حنين.

ويحتمل أن حنينًا واسع الأرجاء متباعد الأكناف، يشمل في بعـض جوانبه وادي أوطاس، وكانت فيه الوقعة، ولا ينافي هذا قول عياض: هو موضع حرب حنين، على معنى أنه ميدانها من حُنين، وهذا عندنا أرجح.

أمـا الحافظ ابن حجر رحمه الله فإنه تأثر بقول ابن إسـحاق فـي ذكره تعدد المواضع التي ذهـب إليها فُرَّار هوازن وثقيف، وذكر منها أوطاس، فظن الحافظ ابن حجر أن أوطاس خارج عن حنين، فاعترض على عياض ورجح على قوله قول غيره، مع أن كلام ابن إسـحاق لا ينافي أن أوطاس جانب من جوانب حنين،

فيرجع قول ابن إسحاق الذي جعله الحافظ توضيحًا لما ذهب إليه من التغاير بين حنين وأوطاس إلى قول عياض.

ومن قرأ من أهل العلم عبارة عياض بلفظ (قرب) بقاف بدل لفظ (حرب) بحاء مهملة لم يصحف، ولكنه أراد التفسير والبيان بأن موقع حرب حنين أي ميدانها هو قرب حنين، أي في جانب من جوانب حنين.

وصدع أبو عامر الأشعري بأمر النبي ﷺ وسار بكتيبته المجاهدة إلى هؤلاء الفرار حتى لقيهم بأوطاس مجتمعين، فقاتلهم، وقتل منهم تسعة إخوة مبارزة.

وفي حديث أبي موسى عند الطبراني قال: لما هزم الله المشركين يوم حنين بعث ﷺ على خيل الطلب أبا عامر وأنا معه، فقتل سلمةُ بن دريد بن الصمة أبا عامر، فعدلتُ إليه فقتلته، وأخذت اللواء مستخلفًا من أبي عامر، فقاتل أبو موسى المشركين حتى هزمهم وظفر بغنائمهم وسباياهم.

قصة الشيماء أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة

وكان في السبي الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى السعدية، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، ولم تجد بين سائقي السبي من يعرفها، وقد أتعبها في السير من كان يسوق بالسبايا، فقالت لهم الشيماء متوددة مستعطفة: تعلموا أني أخت صاحبكم -تعني رسول الله ﷺ- من الرضاعة! فلم يتقبلوا كلامها بتصديقها فيما قالت؛ لأنه لم يكن معها من الدلائل والقرائن ما يشعرهم بشيء مما قالت، وساروا بالسبي يعنفون في سيرهم المطنب، والشيماء قد ركنت إلى الصبر والاستسلام متحملة نصيبها من مشاق السير ومتاعبه حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إني أختك -أي من الرضاعة- وكان العهدُ قد طال، والزمن قد أسرع المرور، والأحداث توالت وتراكمت، والصغير قد كبر، والمعالم تغيرت، واختفت شواهد وخلفتها شواهد، فلم يستحضر رسول الله ﷺ من أحداث رضاعه في بادية بني سعد الأمور الخاصة بحياته الشخصية في إبان طفولته، فلما أخبرته الشيماء بهذا الخبر الطريف الغريب أراد أن يتثبت من صحة إخبارها، فقال لها مستطلعًا ما عندها من القرائن والدلائل: «وما علامة ذلك؟» أي ما علامة أنكِ أختي من الرضاعة، والزمن بعيد، والأحداث متكاثرة متتابعة؟ فقالت الشيماء مبرهنةً على صدقها فيما ادعت: علامة ذلك عضةٌ عضضتَنيها في ظهري وأنا متوركتك، فذكر رسول الله ﷺ ما كان منه إليها وهي تحمله طفلًا، ولعلَّ هذه العضة كانت من مداعبات الطفولة،

وكانـت مظهرًا مـن مظاهر قوة المداعبة التـي لعلها كانت ردًا على مداعبةٍ منها إليه ﷺ، فرد عليها مداعبتها بأشـد مما كان منها إليه حتى أبقت مداعبته ﷺ أثرها في بدنها؛ ليكون لهذا الأثر شـأنٌ يجعله آيةً من آيات أحداث النبوة وحوادث الرسـالة بعد زمن مديد.

ولما ذكر رسـول الله ﷺ هذا الحـدث الطريف في أحداث طفولتـه وعرف ما ذكرتـه له فكان علامة واضحة - بسـط لها رداءه إكرامًـا لهـا، وأداءً لحـق صلتها القربى ومـا كانت تقوم به نحوه ﷺ، وأجلسـها عليـه احتفاء بذكريـات الماضي في شـخصها، ورحَّب بها، وأخرجها من ضوائق السـبي، ودمعت عينـاه ﷺ رقةً لهـا، وعرفانًا لشـأنها، وتذكرًا لأيـام الماضي المشـرق بنور الإعداد الإلهـي والتربية الربانيـة، لما كتب له فـي كتـاب الغيب من جلال الرسـالة الخاتمة الخالـدة وهداية الإنسـانية إلى معرفة خالقها مقيمـة لموازين العدل فيما بينها أفـرادًا وجماعـات، وهاهـو ذا ﷺ فـي يومـه الذي يـرى فيه أختـه من الرضاعة تخاطبه فتقول له: إني أختك، ويسـتعلمها عـن علامة يذكر بها صـدق قولها، فتخبـره، فيذكر ويكرمها ويرحب بها، ويقول لها ﷺ مخبرًا مواسيًا آسيًا لجراحها: «إن أحببت فعندي محببـة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلـى أهلك» فتقول الشـيماء: بـل تمتعني وتردنـي إلى قومي، وأسـلمتِ الشـيماءُ، وأعطاها رسـول الله ﷺ غلامًـا وجارية، فزوجـت الغـلام بالجاريـة ورزقهما الله نسـلًا من هـذا الزواج المبارك، فلم يزل في بني سعد من نسلهما بقية.

وقال رسـول الله ﷺ للشـيماء تحقيقًا لرغبتها في الرجوع إلـى قومها آمنة مطمئنة ممتعـة: «ارجعي إلى الجعرانة تكونين مع قومك» وكانت الجعرانة محبس سـبي هوازن، حبسـه ﷺ فيها مسـتأنيا بهوازن لعلها تثوب إلى الإسـلام وتجيء مسلمة فيرد سـبيها، ثـم قال ﷺ للشـيماء زيادة فـي طمأنتها: «إني أمضـي إلى الطائـف» فرجعت الشـيماء مكرمة إلـى الجعرانة لتكـون مع قومها من الأسـارى والسـبايا، حتى وافاها رسـول الله ﷺ بالجعرانة، وأعطاها فوق ما أعطاها من قبلُ نَعَمًا وشاءً لها ولمن بقي من أهل بيتها.

هـذا الموقـف النبيل الكريـم -الذي وقفه رسـول الله ﷺ من الشـيماء أختـه من الرضاعـة وقد جيء بها إليه ﷺ سـبية في سـبايا قومها هوازن، فتعرفت لـه ﷺ فعرفها- يمثل جانبًا جزئيًـا في منهـج الرسـالة الخالـدة، ذلك هو منهـج التلطف الأكـرم، والحفاوة العاطفة بمن زلفت به قدم الحياة ومجريات المقاديـر، وهو حريٌّ بما كان له من صـلات عاطفية، وروابط إخـاءٍ وَدُودٍ، أن يكون في منزلة الشـمول بالإكـرام والحفاوة، وقد تكشفت أغطية الغيب بعد طول المدى عن تحقيق ما كان قـد فوتـه الزمن بمروره السـريع الطويل، ونالت الشـيماءُ من الإكرام والحفاوة ما لم يكن لها ولا لقومها في الحسبان.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي موسـى الأشعري، قال: لما فـرغ ﷺ من حنين بعث أبا عامر علـى جيش إلى أوطاس، فلقي أبو عامر دريد بن الصمة، وقتله، وهزم الله أصحاب دريد.

وهـذه الرواية المخرجة فـي أصح الصحيح سـندًا تتعارض

موقف الأنصار من غنائم حنين
وموقف النبي ﷺ منهم

الأنصار كتيبة الإسلام الأولى مع السابقين الأولين من المهاجرين، لم تفقدهم غزوة مع رسول الله ﷺ، ولم تفتهم سرية من سرايا الجهاد، ولا بعثة من بعوث الدعوة إلى الله التي كان يُنفِذها رسول الله ﷺ ويعقد راياتها، ويوجهها إلى أقوام من أعداء الإسلام دُعوا إليه فأبوا إلا الكفر بالله والاستمرار على الوثنية الضالة.

وكان الأنصار في غزوات رسول الله ﷺ التي قادها بنفسه الشريفة حرسه الخاص الذين يفدونه بأرواحهم وأموالهم ودمائهم، وكانوا في غزوة الفتح الأعظم فتح البلد الأمين مكة المكرمة، هم الكثرة الغامرة الذين اصطفاهم القائد الأعظم رسول الله ﷺ ليكونوا كتيبته الخضراء، يحيطونه بأنفسهم، ويحمونه بسيوفهم، وكانت حملات القتال في جميع الغزوات لهم أو عليهم، فإن كانت لهم لم يكونوا إلا طليعة للمكارم، وإن كانت عليهم هانت عليهم أرواحهم في سبيل الله، فهم الصُّبْرُ عند اللقاء الصُّدُقُ إذا احمرت حومة الوغى وحمي الوطيس.

وبهذه القوة الفدائية كانوا في غزوة حنين أمام حشود

هــوازن، وتجمعاتها الهائلة التــي لا يحصيها العد. ولما انهزم الرعــاء من القبائل، وتبعهــم الطلقاء ومــن كان على غرارهم، ممــن لــم تتشــرب قلوبهم الإيمــان في صــدق تبعاتــه في أول جولة فوجئوا فيها برشــق الســهام دفعة واحــدة، وهم غارون، فلم يحتملوا رشــق النبال تمطرهم بالسهام، ولم يصبروا على عض الســيوف، وكانت لحظــة من لحظات الدهــش المذهل، وتقاعس الناس وفروا، ووقف رســول الله ﷺ في قلة من أبطال الهاشــميين، لا يــزول ولا يحول - كان الأنصــار هم المنادين للكرة الصادقة على الأعداء، وخُلِعت عليهم من القائد الأعظم رســول الله ﷺ خِلَعُ البطولة، ونــودوا بألقابهم ألقاب الفدائية والشــجاعة، فقيل لهم: يا أصحاب السَّمُرة، تذكيرًا لهم ببيعة الرضــوان التي بايعوا فيها رســول الله ﷺ علــى الموت، وقيل لهم: يا أصحاب ســورة البقرة، تذكيــرًا لهم بما فيها من آيات الفداء وحب الاستشــهاد في ســبيل الله، وإعــلاء كلمته، وقيل لهــم: يا أنصــار الله، تذكيرًا لهم بما عاهدوا الله ورســوله عليه مــن نصــرة دينه، في بيعتهــم الكبرى، فــكان جوابهم عن كل هــذا قولهم: لبيك، يا لبيك، وكروا على جموع هوازن وثقيف وســيوفهم بأيديهم كأنها الشــهب حتى أزالوهم عن مواقفهم، وهزموهم شــر هزيمة، وأخذوهم بالأيدي أسرًا وسبيًا، بعد أن قتلــوا منهم عديدًا من الرجال المحاربين، وطابت للمســلمين غنائمهم التي لا يأخذها العد والحصر ولا يأتي عليها الإحصاء

والتقدير، وكان الأنصار أحقَّ بها وأهلَها.

وقد أشرنا إلى موقف المهاجرين السابقين الأولين الذين انفردوا بشرف السبق فلم يلحقوا في الفضل، فكانوا أخص الخاصة في مواطن العزة والفداء والبطولة عندما ذكرنا أن رسول الله ﷺ لم يُنِلْ نفسَه الشريفة من هذه الغنائم شيئًا قط، كما أنه ﷺ لم يعط خواص أصحابه، وفي طليعتهم المهاجرون ولا وبرة.

وإنما عرضنا هنا لموقف الأنصار؛ لأن بعض ذوي الطموح من حُدثائهم عزَّ عليهم أن يعطي رسول الله ﷺ غنائم هوازن على كثرتها الهائلة للطلقاء، والذين في قلوبهم مرض من مسلمة الفتح بصورة فاقت كل صور الكرم الإنساني، ولم يعط الأنصار منها شيئًا، وهم يرون أن سيوفهم لا تزال تقطر دمًا من جموع هوازن وثقيف وحشودهم مما كان هو السبب المباشر في حيازة هذه الغنائم الهائلة الضخمة الغامرة، كما أن هذه السيوف الأنصارية هي التي قهرت من ظل على كفره وعتوه من أهل مكة، فساقتهم إلى الإسلام طوعًا أو كرهًا، فتكلم شباب الأنصار وحدثاؤهم في ذلك بكلام ينم عن غضبهم، وتخوفهم أن يتركهم رسول الله يرجعون إلى المدينة، وليس هو ﷺ فيهم، بل يبقى بين قومه في بلده (مكة)، وسكت كبراؤهم وذوو الرأي فيهم فلم يشاركوهم فيما تكلموا به، ولم ينهوهم عنه.

تلطف رسول الله ﷺ مع الأنصار وإبرازه مناقبهم في الإسلام

وبلـغ حديثهـم رسـول الله ﷺ ، فدعاهم دعـوة خاصة إلى الاجتمـاع به، فجاءوه: أشـرافهم وحدثاؤهـم، فتحدث إليهم حديـث الوفـاء والحب وعرفـان الجميـل المشـكور الذي لا يُنكر، وأراهم منزلتهم من الإِسـلام، وما بذلوا في سبيل إعزازه من الحب لله ورسـوله ﷺ ، وحسـم الأمر بمـا جعلهم يفيئون إلى منازل رسـوخ اليقين، ووزن الدنيـا وزخرفها بميزانها عند رسـول الله ﷺ من سرعة تقضِّيها وفنائها وحقارة زهرتها، وما يصحبهـا من غصص وأكـدار، فرفع أفئدتهم إلى سـمو الآخرة وخلودهـا وخلـوص نعيمها من شـوائب الأكـدار لمن كان من أهلها في رسوخ الإِيمان وصالح العمل.

وكانـت الآية الكبرى في هـذا الحديث معهم تطمينهم إلى أن رسـول الله ﷺ لن يتركهم يعودون إلـى دار الإِيمان المدينة المنـورة، وهو ﷺ ليـس معهم يقودهم فـي عودتهم المظفرة إلـى داره ودارهـم، فمحيـاه ﷺ محياهـم، ومماتـه مماتهم، وسـيرجعون به إلـى دار الإِيمـان يحوطهم بكنفـه، ويكنفهم بحبه ورعايته، يسـددهم ويربيهم بأرفع دروس التربية والتفقه فـي الدين، ويعلمهم مما يعلمه الله، ويرجع الناس إلى منازلهم بالشاء والبعير، فبكى الأنصارُ وقالوا: يا رسول الله، قد رضينا.

أخـرج ابـن إسـحاق والإمـام أحمد مـن حديث أبي سـعيد الخـدري، قـال: لمـا أعطى رسـول الله ﷺ ما أعطـى من تلك الغنائـم في قريش وقبائـل العرب، ولم يكن فـي الأنصار منها شيء وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي رسول الله ﷺ قومه.

وفي مواهب القسـطلاني، فقال نـاس من الأنصار: يغفر الله لرسـول الله ﷺ، يعطـي قريشًـا ويتركنا، وسـيوفنا تقطر من دمائهـم، والله إن هـذا لهـو العجـب، إذا كانت شـديدة نُدعى وتعطى الغنائم لغيرنا، ووددنا أن نعلم ممن كان هذا؟ فإن كان من الله صبرنا، وإن كان من رأيه ﷺ استعتبناه، وفي حديث أبي سـعيد عند الإمام أحمد وابن إسـحاق: فقال رجل من الأنصار: لقـد كنت أحدثكـم أنه لو اسـتقامت الأمور، لقـد آثر عليكم غيركم، فردوا عليه ردًا عنيفًا.

وعندنا أن هذا الرجل لم يحسـن أن يتكلـم بكلمة الإيمان المهـذب، ولا ندري إذا صحت الرواية هـل كان ممن آمن ولم يرسخ الإيمان في قلبه، فغلبت عليه العنجهية الجاهلية، فقال ما قال؟ ومن ثم فقـد عَنَفَ في الرد عليه المؤمنون الصادقون، أو كان ممن في قلبه مرض، فتكلم بأسلوبِ مرضى القلوب؟

وهـذا كلـه كان مـن حدثائهـم وشـبابهم، أما رؤسـاؤهم، فسـكتوا ولم يقولوا شيئًا، كما هو صريح رواية الصحيح التي جاء فيها: أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئًا.

وعند الطبري من رواية أحمد وابن إسحاق، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعتَ في هذا الفيء الذي أصبتَ، قسمتَ في قومك، وأعطيتَ عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء، فقال النبي ﷺ لسعد: «فأين أنتَ من ذلك يا سعد؟» فقال سعد: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي.

حديثه ﷺ مع الأنصار فيما بلغه من مقالة حدثائهم حتى أرضاهم فبكوا إشفاقًا وحبًا:

وهذا القول من سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، والخزرج غمرة الأنصار وكثرتهم إنما أراد به أن يستطلع لقومه حكمة السياسة النبوية في هذا التصرف ليظهرهم على السبب الذي لأجله تصرف رسول الله ﷺ فيما أفاء الله عليه وعلى المسلمين من غنائم هوازن؛ ليستصلح سعدٌ نيات قومه ويصفي إخلاصهم لله تعالى في جهادهم، ويعلمهم أن الجهاد في سبيل الله لم يكن في دين الإسلام كحروب الجاهلية، تشعل نيرانها لجمع الغنائم من الأموال والسبايا، وإنما هو قتال لإعلاء كلمة الله، ونشر رسالة الإسلام، وتأليف القلوب على حب هذا الدين القيم. ولهذا قال رسول الله ﷺ لسعد بن عبادة: «فاجمع لي قومك في الحظيرة»، فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فلما اجتمعوا إليه أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك

هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه بالذي هو له أهل ثم قال ﷺ: «يا معشر الأنصار، ما مقالة بلغتني عنكم؟ وموجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالًا فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بلى، لِله ورسولِه المنُّ والفضلُ، فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟» قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، لله ورسوله المن والفضل، فقال رسول الله ﷺ يلقنهم ألوانًا من الفضل انفردوا بها عن سائر من أظله لواءُ الإسلام في أرض الله تبيانًا لرفيع منزلتهم، ليعرف حدثاؤهم أنه ﷺ لم يحرمهم العطاء من هذه الغنائم جحدًا لفضلهم، وإنكارًا لمنزلتهم، وإنما أعطى العطاء العظيم ليتألف به قومًا حديثي عهد بكفر، أشفق عليهم أن يستحوذ الشيطان على قلوبهم فيوطن فيها الكفر، ويردهم على أعقابهم إلى الشرك والوثنية، وهما لا يزالان في مداخل أنفسهم متزملين برداء ميراث الجاهلية، وقد جاء في رواية أن فقهاء الأنصار قالوا: أما فقهاؤنا فلم يقولوا شيئًا، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «فإني أعطي رجالًا حديثي عهد بكفر أتألفهم».

ثم انتقل بهم ﷺ إلى ما يستل من نفوسهم كل إحساس بأن هذا العطاء الذي تألف به قومًا أشفق عليهم أن تتخطفهم

الشـياطين، فتهوي بهم إلى عذاب النار، ويردوهم عن الإسلام الذي دخلوا في ساحته ولم يُشرَبوا حبَّه، وأنه ﷺ ترك الأنصار -وهم مَنْ هم من السؤدد والفضل- لرفيع منزلتهم في الإسلام، ورسـوخ إيمانهم بموجباته، ومعالم هدايته، فقال لهم مُشِـيدًا بمآثرهـم: «أما والله لو شـئتم لقلتم فصدقتـم وصدقتم، أتيتنا مكذَّبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسـيناك...، وجدتم في أنفسكم يا معشـر الأنصار في لعاعة مـن الدنيا تألفتُ بها قومًا ليسـلموا ووكلتكم إلى إسـلامكم، أفلا ترضون يا معشـر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعـوا برسـول الله إلى رحالكم؟ فوالـذي نفس محمد بيده لـولا الهجـرة لكنتُ امرأ من الأنصار، ولو سـلك الناس شـعبًا وسـلكتْ الأنصارُ شـعبًا لسلكت شـعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى الأنصار حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا.

ملاحقة فلول ثقيف في حصونهم بالطائف

لـم تكن غـزوة الطائف غزوةً مسـتقلةً، قصد إليها رسـول الله ﷺ قصدًا قتاليًا، ولكنها كانت من ملحقات غزوة حنين.

وقـد ذكـرت روايـاتٌ تجمعاتِ بطـون هـوازن ومن ضوى إليهـا من القبائل التـي حولها بقيادة مالك بن عـوف أن ثقيفًا كلهـا انضمت مع جموع هوازن لمحاربة رسـول الله ﷺ، فلما انهزمت جمـوع هوازن، حقت الهزيمـة المنكرة على ثقيف، وفرَّ المنهزمون من رجال هوازن إلي الوديان والشـعاب، وقمم التلال والجبال.

وبعـث رسـول الله ﷺ السـرايا والبعوث فـي أثرهم، وأمر بتتبع المنهزمين الذين فروا إلى الوديان والشعاب ليقضي على ما بقي لديهم من أسباب المقاومة بكسر شوكتهم.

كانت فلول المنهزمين من ثقيف قد يمَّمتْ بلدَها الطائف، وكان فيهم قائد الحملة مالك بن عوف، فاعتصمت هذه الفلول بحصون الطائف بعد أن حصنتها تحصينًا قويًا، وأدخلوا فيها ما يصلحهم من مُؤَنٍ وطعامٍ وأسلحةٍ؛ حتى لا يحتاجوا إلى النزول منها إلا إذا نفد ما جمعوه، وكان شـيئًا كثيرًا، قيل إنهم زعموا أنـه يكفيهم سـنة أو أكثـر، وتهيَّئوا للقتال مـن وراء حصوهم بأسلحة ليس أسلحةَ الكر والفر، ولكنها كانت أسلحة رمي من أعالي الحصون، أعدوا فيها سككًا من حديد، وجمعوا حجارة

كثيرة، وأمَّنوا سـرحهم في رعيه، فأمروا رعاتهم أن يرتعوا في مواطـن يأمنون فيها سـطوة الجيـوش المسـلمة، وقاموا على حصونهم بالسلاح والرجال.

وكان رسـول الله ﷺ قد قـدَّم خالد بن الوليـد على مقدمته في ألف مقاتل من سـليم وغيرهم من القبائل التي كانت تحت رايـة خالد في فتح مكة ومن انضـم إليه من الطلقاء، فدنا خالد من حصنهم، ودار حوله، ونظر في نواحيه عسى أن يجد منفذًا ينفـذ منه إلـى ثقيف ومن معها، فيشـغلهم بالقتـال في داخله ويفتحـه لكتائب المجاهدين، ولكنه لـم يعثر على منفذ ينفذ منه إليهم، فلجأ إلى سياسـة المفاوضة معهم، فوقف في ناحية مـن الحصن، ونـادى ثقيفًا، ينزل إليَّ أحدكـم أكلمه وهو آمن حتـى يرجـع إليكم، أو اجعلـوا لي مثل ذلـك، وأدخل عليكم أعلمكم، فأبوا ذلك إباءً شديدًا وأن يفتحوا معه باب المفاوضة علـى أي صـورة، وقالوا لـه: لا ينزل إليك رجـل منا، ولا تصل إلينا، ثم أخذتْهم العزة بالإِثم، ونفخ الشـيطان في معاطسـهم نفخـة العتو والفجور، فقالوا كمـا قال قائدهم في حملة هوازن مالـك بن عوف، ومِن قبلـه يهودُ بن قينقـاع: إن صاحبكم لم يلقَ قومًا يُحسِـنون القتال غيرنا، فقال خالد -ليُذهب غرورهم ويكسـر شوكتهم، ويكفكف من عنجهيتهم وبأوهم، ويريهم مـا لعلهم لـم يكونوا قـد رأوه مـن انتصـارات النبي ﷺ على جميـع مـن حاربوه عنـادًا وكفرًا-: فاسـمعوا مـن قولي: نزل

رسـول الله ﷺ بأهل الحصـون والقوة بيثـرب وخيبر ، وبعث رجـلًا واحدًا إلى فـدك ، فنزلوا على حكمـه ، وأنا أحذركم مثل مـا نزل بقريظة ، حصرهم رسـول الله ﷺ أيامًـا ، ثم نزلوا على حكمـه فقتـل مقاتلتهم في صعيد واحد ، وسـبى الذرية ، وفتح مكة ، وأوطأ هوازن في جموعها ، وإنما أنتم في حصن في ناحية من الأرض ، لو ترككم رسـول الله ﷺ لقتلكم من حولكم ممن أسلم ، فقالوا عنادًا وكفرًا : لا نفارق ديننا ، فتركهم خالد ورجع إلى كتيبته .

وكان فيمـن حُصر من ثقيـف عمرو بن أميـة الثقفي ، وهو داهيـة العـرب قـال لهم يحرضهـم : لا يخرج إلـى محمد أحد منكـم إذا دعـا أصحابه إلـى البراز ، دعوه يقيم مـا أقام ، فنادى خالد : من يباز ؟ فلم يجبْ منه للبراز عملًا برأي داهيتهم عمرو بـن أمية ، وصرخ عبد ياليل يجيب خالـدًا فقال : لا ينزل إليك أحد ، ولكنا نقيم في حصننا ، خبأنا فيه ما يصلحنا السنين فإن أقمتَ حتـى يذهب ذلك الطعام خرجنا إليك جميعًا بأسـيافنا حتى نموت عن آخرنا .

حصار ثقيف وشدته على المسلمين

سار رسول الله ﷺ إلى ثقيف، وهي محصنة في حصونها بعدما تأهبت لطول الحصار بما أعدت من مؤنٍ وطعام وأسلحة، ونزل بكتائبه المجاهدة قريبًا من حصنهم، وهيأ نُزُلًا لعسكره، وأشرف أشراف ثقيف من فوق حصنهم فرأوا عسكر رسول الله ﷺ قريبًا من حصنهم تناله نبالهم وسهامهم، فرموا المسلمين بالنبل والمقاليع رميًا شديدًا، ودلوا على من زحف من المسلمين إلى حصنهم سكك الحديد المصهورة بالنار حتى أصابوا عددًا من المسلمين بالجراح، وقتلوا عددًا آخر، فارتفع رسول الله ﷺ بعسكره عن منزله الذي نزل أول ما نزل، وكان قريبًا من حصن ثقيف، تناله نبالهم ومقاليعهم إلى منزل أبعد من مرمى النبل والمقاليع.

وظل رسول الله ﷺ محاصرًا لحصن ثقيف حصارًا اختلفت فيه الرواية اختلافًا واسعًا، لا تتلاقى أطرافه. ومن أكثر الروايات مبالغة في تقدير مدة الحصار ما رواه مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده من حديث أنس أن هذا الحصار كان أربعين يومًا، وأقربها وأشهرها أنه ظل بضع عشرة ليلة، قال ابن حزم: وهذا هو الصحيح بلا شك، ولا ندري ما مراد ابن حزم من جزمه المؤكد بأن هذا هو الصحيح، فإن أراد صحة السند، فهو معارَض برواية مسلم وسنده، ورواية أحمد وسنده، وإن كان قد أراد صحة المتن فمن أين أخذه؟

ولو لم يكن لمسلم رواية لكان لتصحيح ابن حزم رواية بضع عشرة ليلة وجه وجيه؛ لأنها تشمل سائر الروايات التي حددت مدة الحصار بأقل من عشرين ليلة لشمول البضع وصدقه على تسعة عشر ليلة فأقل، ولكن تبقى معارضة رواية مسلم وأحمد بأربعين ليلة، وسند مسلم لا يطعن فيه إلا بأمر بين.

وقد ذكر القسطلاني في مواهبه ثمانية عشر يومًا، وحكى ابن سعد في الطبقات خمسة عشر يومًا، وذكر ابن هشام سبع عشرة ليلة، وذكر ابن إسحاق من رواية زياد بضعًا وعشرين ليلة، ومن رواية يونس ثلاثين ليلة.

وكان الحصار شديدًا على ثقيف، رماهم فيه ﷺ بالمنجنيق، ولكنهم لم يستسلموا، ولم يحسم المنجنيق أمرهم، وظلوا على حالهم في احتمال شدة الحصار.

ترغيبٌ رقيقٌ لحمل ثقيف على النزول

ثم سلك بهم ﷺ مسلكًا آخر، لا يقل وخزًا في قلوبهم عن قطع أعنابهم ونخيلهم، بل كان أنكى لهم، فأمر رسول الله ﷺ مناديًا ينادي: «أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر» فخرج منهم كما ذكره ابن إسحاق بضعة عشر رجلًا، فيهم أبو بكرة الصحابي الشهير.

وفي حديث البخاري عن أبي عثمان النهدي إن الذين نزلوا لمَّا سمعوا منادي رسول الله ﷺ كانوا ثلاثة وعشرين رجلًا، قال أبو عثمان النهدي واسمه عبدالرحمن بن ملّ: سمعت سعدًا وأبا بكرة أن النبي ﷺ قال: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام» قال عاصم -الأحول- قلتُ لأبي عثمان: لقد شهد عندك رجلان حسبك بهما، قال: أجل، أمَّا أحدهما فأول من رمى بسهم في سبيل الله، وأما الآخر فنزل إلى النبي ﷺ ثالثَ ثلاثة وعشرين من الطائف.

وقد أعتق النبي ﷺ جميع من نزل إليه، كما أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أعتق ﷺ يوم الطائف كلَّ من خرج إليه من رقيق المشركين، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يموِّنه، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة، ولما أسلمت ثقيف تكلم أشرافهم في أرقائهم أن يرودهم إلى الرق، فأبى رسول الله ﷺ أن يردهم إلى الرق، وقال: «أولئك عتقاء الله، لا سبيل إليهم».

وبقيت ثقيف في عنادها محصورة في حصنها، لم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتح الطائف هذا العام، قال العلماء في بيان حكمة ذلك: إشفاقًا عليهم أن يستأصلهم المسلمون لِما وقع منهم لرسول الله ﷺ حين ذهب إليهم بعد موت عمه أبي طالب الذي كان له أقوى سند، وبعد خروجه ﷺ من حصار قريش، ذلك الحصار الظالم الذي تعاهدوا عليه وكتبوا به صحيفتهم الظالمة التي مزقها الله تعالى، فلم يبق فيها إلا اسمه جل شأنه، وكانت قريش قد اشتد ظلمها وعنادها له ﷺ بعد موت عمه إذ توهموا أن الجوَّ خَلا لهم، فذهب ﷺ إلى ثقيف بالطائف فدعاهم إلى الله، وطلب منهم أن يُئووه حتى يبلِّغ رسالة ربه، فكانوا أشد أهل الشرك قبحًا في ردهم عليه ﷺ، وآذوه إيذاء شديدًا، وأبوا أن يدَّرعوا بالمروءة العربية، ولكنهم وقفوا منه ﷺ موقفًا منكرًا، وأخرجوه من ديارهم في صورةٍ تمثل العناد والفجور والعتو المتجبر في أقبح وأشنع صورها.

وقد زاد في غضب المسلمين عليهم أنهم انضموا إلى هوازن في حربها لرسول الله ﷺ مما جعل المسلمين يحملون لهم الحفيظة عليهم، فآثر ﷺ تحقيقًا لما جبله الله عليه من الرحمة والرأفة، وحبه لنشر رسالته الهادية أن يستأني رجاء إسلامهم.

وقد استشار في شأنهم نوفل بن معاوية الديلي، فقال له: «يا نوفل، ما ترى في المقام عليهم؟» فقال نوفل: يا رسول

الله، ثعلبٌ في جحر، إن أقمت أخذته، وإن تركته لم يضرك.

ثم أمر ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يؤذن في الناس بالرحيل، فضج المسلمون من ذلك، وقالوا: نرحل ولم تفتح علينا الطائف؟ فأخذهم ﷺ بسياسته الحكيمة المحكمة ولم يرغمهم على الرحيل، بل قال لهم: «اغدوا على القتال» فغدوا فأصابتهم الجراحات، فشكوا إلى رسول الله وقالوا: أخذتْنا نبال ثقيف، فادع الله عليهم، فقال ﷺ: «اللهم اهد ثقيفًا وائتِ بهم» ثم قال: «إنا قافلون غدًا إن شاء الله تعالى» فسُرَّ المسلمون بذلك، وأذعنوا وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك تعجبًا من تغير رأيهم، وفي حديث الصحيحين: لمَّا حاصر رسول الله ﷺ الطائف، فلم ينل منهم شيئًا قال: «إنا قافلون غدًا إن شاء الله» فثقل على المسلمين، وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟ فقال ﷺ: «اغدوا على القتال» فغدوا فأصابتهم جراحات، فقال ﷺ: «إنَّا قافلون غدًا إن شاء الله تعالى» فأعجبهم، فضحك ﷺ.

قال النووي في شرح مسلم: قصد ﷺ الشفقة عليهم والرفق بهم بالرحيل عن الطائف لصعوبة أمره، وشدة الكفار من أهله، وتقوِّيهم بحصنهم، فلما رأى ﷺ حرص الصحابة على المقام والجهاد أقام وجدَّ في القتال، فلمَّا أصابتهم الجراحُ رجع ﷺ إلى ما كان قصده أولًا من الرفق بهم، ففرحوا بذلك لما رأوا المشقة، ووافقوا على الرحيل، فضحك ﷺ تعجبًا من تغير رأيهم.

هــذا موقف مــن مواقف معالم منهج رســالة الإِســلام، وهو جدير بالتأمل ليُستَهدى بما فيه من سياسة حكيمة، تجلَّتْ في مســلك رســول الله ﷺ وموقفه مع أصحابه، وأخذهم بالرفق، وموقفه مع ثقيف، وأخذهم بألوان من السياسة الحكيمة، على رغم ما أتوا إليه من سوء اللقاء والإِيذاء، حين ذهب لدعوتهم إلى الله تعالــى، وحين مكنه الله تعالى منهم، فحصرهم في حصنهم حصارًا قيدهم بأغلال الاستســلام، وإن طـال عليهم الأمد فقد تلطف بهم، وأشــفق عليهم من ســيوف أصحابــه، ثم دعا لهم بالهدايــة واعتناق الديــن الحق، دين الإِســلام، فقبل الله تعالى دعاءه لهم، وأقبلت وفودهم عليه ﷺ مسلمة مستسلمة.

وفي كل موقف من المواقف المتلطفة حينًا، والمشــتدة حينًا آخــر نماذج من معالم منهج الهداية في رســالة الإِســلام، توجب على المسلمين في شتى أجيالهم أن يتخذوها مسلكًا في مواقفهم الداعية إلى الله، وسيرتهم الخالدة في نشر رسالة الإِسلام.

إسلام عروة بن مسعود الثقفي في طريق عودة النبي ﷺ إلى المدينة

ولما جدَّ برسول الله ﷺ وأصحابه السيرُ، وهم قافلون، لحقه في الطريق عروة بن مسعود بن معتب أحد سادات ثقيف -وكان له موقف في الحديبية- فأسلم وبايع رسول الله ﷺ، وسأل رسول الله أن يرجع إلى قومه بإسلامه، ليدعوهم إلى الإسلام، فأشفق عليه رسول الله ﷺ من عناد قومه وعتو كفرهم، وعنجهيتهم، ونخوة امتناعهم عن مفارقة شركهم ووثنيتهم، فقال عروة: لَأنا أحبُّ إليهم من أبكارهم، وكذلك كان فيهم عروة محبَّبًا مطاعًا، فخرج عائدًا إلى بلده وقومه، وأنبأهم بإسلامه، ودعاهم إلى الإسلام، ورجا أن لا يخالفوه لمنزلته فيهم.

فلما أشرف عروة على عُلِّيَّةٍ له، وأظهر لهم إسلامه، ودعاهم إلى الإسلام، وأنه آمن بالله ربًا، وبمحمد رسولًا ركبوا صهوات حماقاتهم، واستزلهم الشيطان بكفرهم، وعتوّ فجورهم، فرموه بالنبل فقتلوه، فقال قوم عروة له: ما ترى في دمك؟ يريدون الثأر له، فقال لهم عروة ليصرفهم عن مقصدهم: كرامةٌ أكرمني الله بها وشهادةٌ ساقها الله إليَّ، فليس فيَّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم، وقد قال فيه رسول الله ﷺ لما بلغه

استشهاده: «إن مثله في قومه كمثل صاحب يس في قومه».

وقد أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرًا لا تتقدم ولا تتأخر، وطال عليهم الحصار واشتد، ورأوا مسارعة الناس إلى الدخول في دين الله أفواجًا، وصاروا في عزلة موحشة مكفهرة، وعلموا أن ما قال لهم خالد بن الوليد في محاولته معهم حق مشهود يرونه واقعًا بهم، فهم محصورون في حصن في ناحية من الأرض لو تركهم رسول الله ﷺ لقتلهم من أسلم حولهم، فائتمروا فيما بينهم، ومشى رؤساؤهم بعضهم إلى بعض، يتداولون الرأي، ويبحثون عن مخرج يوفضون إليه ليتقوا المزالق الموبقة.

بين عمرو بن أمية وعبد ياليل زعيمي ثقيف في محنتها

وكان داهيتهم عمرو بن أمية الثقفي مهاجرًا لطاغيتهم عبد ياليل لما كان بينهما من سوء، فمشى عمرو بن أمية إلى عبد ياليل بن عمرو حتى دخل عليه داره متناسيًا ما بينهما من خصام ومهاجرة، ثم أرسل إليه بعض أهله وقال للرسول: قل له إن عمرو بن أمية يقول لك: اخرج إليَّ، فلم يصدقْ ذلك عبد ياليل واستغربه جدًا واستبعده -لمكان عمرو بن أمية في ثقيف، وما كانوا يحملونه له من منزلة، وما كان معروفًا به من الدهاء وسعة التفكير، وجودة الرأي- فقال للرسول يكاذبه ويظهر له تعجبه مما يقول: ويحك، أعمرو أرسلك؟! قال الرسول: نعم، وهوَ ذا واقفٌ في دارك، فقال عبد ياليل: إن هذا أمرٌ ما كنتُ أظنه، لَعمرٌو كان أمنعَ في نفسه من ذلك.

وخرج عبد ياليل إلى عمرو بن أمية، فلما رآه رحب به، وقال له عمرو: إنه قد نزل بنا أمرٌ ليستْ معه هجرة، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيتَ، وقد أسلمتِ العربُ كلها وليست لكم بحربه طاقة، فانظروا في أمركم.

واجتمع أشراف ثقيف، وائتمروا فيما بينهم، فقال بعضهم لبعض: ألا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ولا يخرج منكم أحدٌ إلا اقتطع به، فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلًا كما أرسلوا عروة بن مسعود، فكلموا عبد ياليل -وكان في سن

عــروة- وعرضوا عليه أن يكون رســولهم إلى رســول الله ﷺ ، فأبى أن يقبل متمثلًا موقفهم مع عروة وقتلهم له ، وهو يظهرهم على إسلامه ويدعوهم إلى الإسلام.

وقال عبد ياليل لقومه : لستُ فاعلًا حتى تبعثوا معي رجالًا ، فأجمعوا على أن يرسلوا معه رجلين من الأحلاف ، وثلاثة رجال من بني مالك ، فكانوا ستة يرأسهم عبد ياليل .

وإنما فعل ذلك عبد ياليل ليشــغل كل رجل منهم إذا رجعوا للطائف رهطه بحمايته أن يُصنع به ما صُنع بعروة بن مسعود .

فلما دنوا من المدينة المنورة لقيهم المغيرة بن شعبة ، وهو ثقفي من رهط عروة بن مســعود ، قديم الإسلام ، وله موقف في الحديبيــة مع عــروة في كف يده عن مس لحية رســول الله ﷺ وكان في موقفه شديدًا على عروة ، وكان المغيرة يوم قدوم وفد ثقيــف في نوبته لرعي ركاب أصحاب رســول الله ﷺ ، وكانت رعيتها نوبًا على أصحابه ، تحقيقًا لأعظم معلم من معالم منهج رسالة الإســلام وهو المســاواة المتواســية بين أفراد المجتمع المسلم وجماعاته .

وقد فرح المغيرة بن شــعبة بقدوم وفد قومه فرحًا شــديدًا ، وتــرك الــركاب التي يرعاها وضبر -أي وثب- ليبشــر رســول الله ﷺ بقدومهــم عليــه ، فلقيــه أبو بكر الصديــق - رضي الله عنه - قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره عن وفد ثقيف ، وأنهم قدموا على رســول الله ﷺ ، يريدون البيعة والإسلام وأن

يشـرط لهم شـروطًا، وأن يكتب لهم كتابًا في قومهم وبلادهم وأموالهم.

وكان أبـو بكـر - رضـي الله عنـه - أعلمَ الناس بمـا يُدخِل السـرورَ على رسـول الله ﷺ، فقال للمغيرة: أقسـمتُ عليكَ بالله لا تسـبقني إلى رسول الله حتى أكون أنا الذي أحدثه لعلمه باستشـرافه ﷺ وشـدة رغبته في قدوم وفد ثقيف مسـلمين، فأراد الصديقُ - رضي الله عنه - أن يكون هو الذي يبشـره ﷺ قبـل كل أحد ليدخل عليه السـرور بقدومهـم، ففعل المغيرة، وحقق رغبةَ الصديق - رضي الله عنه - وأقبل أبو بكر على رسول الله ﷺ، فأخبره بقدوم وفد ثقيف، وأنهم قد قدموا مسـلمين، يريـدون البيعة والكتاب في قومهم، ورجـع المغيرة إلى ركب قومـه مرحِّبًا بهـم، مُعَلِّمًا لهـم كيف يُحَيُّون رسـول الله ﷺ، وشاركهم في ترويح ظهرهم، ولكن عنجهية الجاهلية، ونخوة العتـوّ فيهم أبتا عليهم إلا أن يتمسـكوا بتـراث جاهليتهم في تحية رسول الله ﷺ.

ابتهاج رسول الله ﷺ بقدوم وفد ثقيف وترحيبه بهم وإكرام نزلهم

وأمر رسول الله ﷺ أن تُضرَب لهم قبةٌ في ناحيةٍ من مسجده الشريف، وجعل خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بين رسول الله وبينهم في الحديث والمفاوضة حتى اكتتبوا كتابهم، وكان خالد بن سعيد هو الذي كتب لهم كتابهم بيده، ولكنهم كانوا لا يزالون على مواريث الجاهلية، فكانوا لا يأكلون طعامًا حتى يأكل منه خالد بن سعيد قبلهم، جهالةً منهم لمنزلة رسول الله ﷺ من مكارم الأخلاق، وجهالةً منهم لمعالم رسالة الإسلام في تزكية النفوس وتطهير القلوب، وكراهية الغدر، وما يجب من إكرام الضيف.

ولكنهم لما أسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ، وكتب لهم الكتاب الذي أراده في قومهم وبلدهم وأموالهم بدأت بشاشة الإيمان تخالط قلوبهم وتشرح صدورهم، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ وأعمالهم وتعبداتهم، وسمعوا القرآن الكريم، وسمعوا الحكمة تتنزل على قلب رسول الله ﷺ فينشرها بين أصحابه إيمانًا وعلمًا وأدبًا وتشريعًا وتربيةً.

وكان من أكثرهم حرصًا على التفقه في الدين وتعلم القرآن عثمان بن أبي العاص، وهو أحدثهم سنًا، فأمَّره عليهم رسول الله ﷺ بإشارة أبي بكر - رضي الله عنه - إذ قال: يا رسول الله، إني رأيتُ هذا الغلامَ فيهم من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن.

جهالة جاهلة من مواريث الجاهلية

وكان من جهالتهم الجاهلة أنهم في مفاوضتهم قد سألوا رسول الله ﷺ أن يترك لهم طاغيتهم (اللات) فلا يهدمها، وجعلوا لذلك أجلًا مسمًى، فأبى ﷺ ذلك إباءً شديدًا، وظلوا يتخففون من الأجل الذي سموه لمدة تركها شيئًا فشيئًا وشهرًا شهرًا خوفًا من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، وكرهوا أن يروِّعوهم بهدمها حتى يؤنسوهم بالدعوة إلى الإسلام فيدخل عليهم على حقيقته التوحيدية الخالصة من شوائب الشرك والوثنية، وعزم رسول الله ﷺ على أن لا يدعها، فسلموا كارهين بعد ما شاهدوا روح التوحيد الخالص تسري في جميع أعمال الصحابة - رضي الله عنهم.

وأرسل رسول الله ﷺ في أثر ركبهم أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة لهدم الطاغية (اللات) لما كان بينهما وبين ثقيف من صلات تكف ثقيفًا عن إيذائهما، فالمغيرة بن شعبة ثقفي من رهط عروة بن مسعود - رضي الله عنهما - وأبو سفيان بن حرب، كانت ابنته تحت عروة بن مسعود، وقد وَلدت له ابنَه داود بن عروة.

وقد كان قتل عروة مرزأةً لثقيف، أخاف رؤساءهم وأشرافهم أن يشعل بينهم حربًا داخليةً بين أرهاط ثقيف لمكانة عروة فيهم، ومنزلة رهطه منهم، ولما كان بين عمرو بن أمية وعبد ياليل من التصالح الذي بدأه عمرو بن أمية داهية ثقيف.

ولـمَّا قدم أبو سـفيان والمغيرة أراد المغيرة بن شعبة سياسةً منه مع قومه أن يقدم أبا سـفيان لهدم الطاغية، فأبى أبو سفيان إلا أن يقابل دهاء المغيرة بمثله، فأحجم أن يتقدم على المغيرة خوفًا من ثقيف ونخوتها في شـركها ووثنيتها، وقال للمغيرة: ادخـلْ أنت علـى قومك، وذهب أبو سـفيان إلى مـالٍ له هناك بعيدًا عن معمعان الرجة في ثقيف.

ودخل المغيرة مُيمِّمًـا الطاغيةَ، وعلاها يضربها بالمعول، ووقـف رهطـه بنـو معتـب دونـه يحمونه مـن غوغـاء ثقيف وسـفهائهم خشـيةَ أن يُرمَـى كما رُمي عروة بن مسـعود قبله، وخرج نسـاء ثقيف يبكين على طاغيتهم جهالةً وكفرًا، وكان أبو سفيان قد عاد من ماله حينما تثبت من أمر المغيرة في هدم الطاغيـة، فوقف ينظـر إلى ضربات معول المغيـرة وهي تنزل علـى الطاغية فتفتتها، وهو يقـول مصانعةً لثقيف بقدر ما كان عنده من هزهزة: واهًا لك!! واهًا لك!! يظهر بذلك أنه خائف علـى المغيرة مشـفقٌ عليـه أن توقع بـه الطاغيـة. ولـمَّا انتهى المغيرة - رضي الله عنه - من تسوية بناء الطاغية بالأرض أرسل بمالها وحليها إلى أبي سـفيان ليقوم بما أمر به رسـول الله ﷺ من قضاء دين عروة بن مسعود من مال الطاغية.

وإلـى هنـا نكف من عنـان القلم عـن الاسترسـال في قصة أحـداث ثقيف وإسـلامهم وهدم طاغيتهم؛ لأن مـا ذكرناه في ملاحقتهـم إلـى حصنهـم ببلدهم الطائـف بعـد هزيمتهم مع

حشود هوازن وجموعها ممن ضوى إليهم[٢٥] من لفائف المتربصين من بقايا القبائل فيه غنية لتبيان ما قصدنا إليه من إبراز معالم منهج رسالة الإسلام.

فقد صار إليهم النبي ﷺ بنفسه الشريفة، يقود كتائب الجهاد في سبيل الله، ليحسم أمر الفارين من حنين، ويقضي على ما عسى أن يكون لهم من بقية قوة للمقاومة، يستغلها الشيطان في إثارة حمية الجاهلية لمواجهة حشود الإسلام المنتصرة.

وقد أوضحنا في ثنايا عرض الموقف ما كان من النبي ﷺ في محاولته أن يأخذ ثقيفًا بغير حرب مدمرة، وأنه ﷺ آثر أن يتلطف بهم ليهدي الله قلوبهم إلى الإيمان، ويقبلوا عليه مسلمين، فحاصرهم وصبر عليهم وصابرهم، ثم ارتحل عنهم بعد جولات بالترامي بالنبل والمقاليع التي استشهد فيها نفر من المجاهدين.

وكان أصحابه ﷺ كارهين لهذا الارتحال قبل أن تفتح عليهم الطائف، ولكن سياسة النبي ﷺ التي سلكها معهم جعلتهم يغيرون من رأيهم، ويرغبون فيما كانوا له كارهين من الرحيل عن ثقيف حتى يأتي الله بهم مهتدين.

---

(٢٥) ضوى إليه وانضوى إليه بمعنى انحاز. (المجلة)

تلطف رسول الله ﷺ بثقيف حتى هداهم الله

ولم يكد رسول الله ﷺ يبلغ المدينة المنورة حتى تنزَّل غيثُ الهداية على ثقيف، فائتمروا فيما بينهم وهم في حصنهم، ورأوا أنهم -كما قال نوفل بن معاوية- ثعلب في جحر، لو تركهم رسول الله ﷺ لم يضروه شيئًا، وإن أقام عليهم أخذهم، وكما قال لهم خالد بن الوليد في محاورته معهم: لو ترككم رسول الله ﷺ لقتلكم مَن حولكم ممن أسلم من القبائل، وتبين لهم أن لا محيص عن الاستسلام والإسلام، وركب وفدهم إلى رسول الله ﷺ ففرح بهم ورحب بقدومهم، وأنزلهم منزلًا كريمًا، ونصب لهم قبةً في ناحيةٍ من مسجده، وبالغ في إكرامهم، ولكن ذلك كله لم يكن ليطفئ نيران عتوهم وعنادهم مما تجلى في مفاوضتهم للدخول في الإسلام دخول إيمان لا دخول سياسة واستسلام.

ولم يزل رسول الله ﷺ يروض جماحهم، ويكفكف من غلوائهم في عتو الكفر حتى آمن وفدهم، ورجع إلى قومه بإسلامه ودعوتهم إلى الدخول في ساحة الإيمان الصادق، وتقبل الله تعالى دعوة نبيه ﷺ فيهم، حين قال له أصحابه - رضي الله عنهم - لفرط ما أصابهم من طول الإقامة على حصارهم: ادعُ على ثقيف، فقد اخترقتْنا نبالُهم، فقال ﷺ: «اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم مسلمين».

فأسلموا وحسن إسلامهم، ولم يقعْ بينهم وبين جند الله

الذين حاصروهم في حصنهم قتالُ مواجهةٍ حتى صاروا من جند كتائب الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، وشهد كثيرٌ منهم غزوة العسرة مع رسول الله ﷺ في تبوك، وكان هذا وأمثالُه من أقوى الدلائل على أن غزوات رسول الله ﷺ لم تكن تستهدف القتال وجمع الغنائم وسفك الدماء، ولكنها كانت كلها للدعوة إلى الله، والدفاع عن الدعوة، وحماية حوزة الإسلام والمسلمين، فإن أغنت الحجة والبيان فلا يرفع في وجه أحد الحسام، ولا يطعن بالسنان، ومن لم يغنه البيان وناصع البرهان استُؤني به حتى يثوب إلى رشده، ما لم يرفعْ يده في وجه الدعوة إلى الله، معوقًا سيرها، وناصبًا قلاع القتال لحاملي راية الجهاد في سبيل الله، فعندئذ يجب جهاد القتال للظالمين المعتدين الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد حتى يفيئوا إلى الحق ويعتنقوا رسالته.

إطلاق اسم «غزوة» على ملاحقة ثقيف في حصنهم توسع لفظي

أمـا إطلاق اسـم غزوة على هـذه الملاحقـة الثقفية فهو من قبيـل التوسـع اللفظي، ولعـل الحكمة في هذه التسـمية التي أجمع عليها أرباب المغازي وأهل السـير وكثير من المحدثين هو وجود النبي ﷺ قائدًا لكتائبها، ومدبرًا لسياستها، وحاجزًا بين هؤلاء الفارين من هزيمة هوازن في حنين أن تأخذهم سيوف المسـلمين مسـتأصلةً لهم لما كان في سـوابقهم مـن الإيذاء ومقاومـة الدعوة إلى الله، وفجـور الكفر الطاغي مما فصَّلْنا في مواضعه ومناسباته، ولانضمامهم إلى هوازن في حربهم رسول الله ومجتمعه المسـلم، فعفـا عنهم، ودعا لهـم بالهداية؛ لما جبله الله عليه من الرأفة والرحمة، ومعالي مكارم الأخلاق.

وبهـذه الملاحقـة لفلول ثقيـف في بلدها الطائـف وحصرها فـي حصنها، ومـا تمَّ لهم من نعمة الإيمان والإسـلام ببركة دعوة النبـي ﷺ لهـم بالهدايـة والمجـيء بهـم إليه مسـلمين ختمت غزواته ﷺ القتالية التي غزاها بنفسه الشريفة الطاهرة المطهرة، قائدًا لحشـود الجهاد، إعلاءً لكلمة الله، ونشـر راية الإسلام على آفـاق الجزيـرة العربية التي أصبحت دار الإسـلام، ولـم يبقَ فيها مُنابذٌ لدعوته ﷺ، ولا مُناكرٌ للإيمان برسـالته إلا حفنات منتشرة هنـا وهناك في مضارب الأعراب وأطراف الأرض وأقاصي النواحي

الذين لم يتركهم رسـول الله ﷺ دون أن تبلغهم دعوته، بل أرسل إليهـم البعـوث والسـرايا تدعوهـم إلى الإسـلام، فجالـوا معهم جولات، فمنهم من آمن، ومنهم من قوتل وغُلب على أمره فأسلم استسـلامًا حتى علم حقيقة دعوة الإسـلام فأسلم إيمانًا، وجاءت وفودهم إلى رسول الله ﷺ مسلمين مبايعين في طواعية وإخلاص، وكتبت لهم الكتب مرسـلة إلى أقوامهـم تدعوهم إلى الله تعالى، وإلـى الإيمان بمـا أنزل من كتاب حكيم، جمع شـرائع وأحكامًا وآدابًـا، وتربية سـلوكية ونظمًا اجتماعية، شـملت قيام الأسـرة على دعائم من الطهر والمودة والرحمة، وشـملت أصول التعامل بين الناس في الأموال والأخلاق وحسـن المعاشرة وطرح مواريث الجاهليـة إلا مـا كان منهـا مكرمةً إنسـانية، ومنقبـة اجتماعية، كانوا يتحاجزون بها عن الانزلاق إلى مساري المنكرات مما أقره الإسـلام، فأبقاه وحض عليه لأنه مُنطوٍ تحـت فضائله، داخلٌ في مبادئه الإصلاحية حتى تشـعر الحياة أنهـا حاملة في أردانها بذرة الخيـر التي تحتاج في نموها إلى من يتعهدها بالرعاية ويسـقيها بماء الهداية لتثبيت جذورها في منابت الإصلاح.

الفهرس